مجلة الشريعة والدراسات الاسلامية

المجلد : 22 العدد : 70 September 2007

منهج القرآن الكريم في التدرج وأثره في التغيير

د. أحمد فريد صالح أبوهزيم (*)

(*) أستاذ مشارك - بكلية التربية - قسم العلوم الإسلامية - جامعة السلطان قابوس، مسقط - سلطنة عمان.

ملخص البحث:

يجلو لنا هذا البحث كيف تتحقق عملية التغيير من الضلالة إلى الهداية، وذلك من خلال وضع منهج كامل، وخطة شاملة، تتمثل إستراتيجيتها في اتخاذ إجراءات لازمة، وتحديد وسائل وأهداف صحيحة، منها:

الوقوف على معاني القران الكريم، وأن تطبق في السلوك، وأن يكون هذا التنفيذ فعلاً واعياً، مع إدراك حقيقة الفعل الذي يمارس وبشكله الصحيح، والغاية التي يحققها القيام به.

كما بين البحث أهمية الوقوف على الظواهر المراد علاجها، والمشكلات التي يريد استبدالها، بكل دقة وإحاطة وشمول، لما في ذلك من ضمان فعالية الإنجاز وإتمام العمل بنجاح.

ومن عوامل التغيير التي حرص البحث على بيانها: الاعتناء بالإنسان، وغرس معاني القيم والمبادئ في ذاته، والتركيز على تكوينه عقائدياً وسلوكياً وعلمياً، فهي تؤدي إلى تعميق البعد الروحي والاتصال بالله تعالى.

كما يهدف البحث إلى بيان منهج القرآن الكريم في التدرج وعدم نزوله جملة واحدة، لِحِكَمٍ جليلة ومقاصد عظيمة، تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة خاصة، حيث إثبات رسالته صلى الله عليه وسلم، وإقامة الدليل على إعجاز القرآن الكريم، وتعليمه بأسلوب هو غاية ما توصل إليه أهل التربية في حفظ النصوص الطويلة وتسهيل فهمها.

كما يهدف البحث إلى بيان الحِكَمِ من نزوله مفرقاً التي تتعلق بالأمة بصفة عامة حيث انتزاع العقائد الباطلة، ومعالجة العادات القبيحة، وسياسة التدرج وإبراز العظات، والتجاوب مع الأحكام وغيرها.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن سار على دربه إلى يوم الدين، أما بعد:

فالدارس لتاريخ الدعوة الإسلامية ونزول القرآن الكريم منجماً على قلب النبي صلى الله عليه وسلم موجهاً ومقوماً لمسيرتها، يرى بوضوح أن الإسلام عندما أراد أن يغير الواقع الجاهلي ويقيم مقامه المجتمع الإسلامي، سلك في تحقيق ذلك منهجاً متكاملاً منظماً، لأن التغيير ليس من الأعمال الهينة، وهو كذلك ليس من قبيل الترف الفكري، أو الارتجالي، وإنما هو من الأعمال الدقيقة العميقة، وخصوصاً إذا علمنا أحوال العرب عند نزول القرآن الكريم، والظروف الصعبة التي كانوا يتعاملون معها: الدينية - منها - والاقتصادية والاجتماعية، والسياسية، وما هو غير ذلك، من القضايا التي تمس حياتهم، وكيف وصلت بهم الحال إلى درجة من التدني في المبادئ والقيم.

لذا فإن ما حصل من عملية التغيير في مثل هذا المجتمع، تتطلب نوعاً من الإدراك والوعي المتكامل والعمل المستمر ضمن ضوابط لا غنى عنها، وإلا فإنه لا شفاء من الداء العضال الذي ينخر ذلك الواقع، وسيبقى متراوحاً في مكانه، وسيفشل في تحقيق مشروعه. والمحصل لهذا العمل في التعامل مع هذا الواقع، هدر للوقت، ومزيد من تضييع الجهود، وجعله عبثاً، وتشتيت الإمكانات، وتمكين الأمراض الفتاكة من الاستفحال وصعوبة العلاج، والاستعصاء على حلول جذرية واقعية، وتسارع بشكل يجعل التحكم فيها أمراً عسيراً.

وانطلاقاً من هذه الثوابت، وتلك المعطيات، جاء القرآن الكريم متوافقاً مع المنطق التغييري، فأبدع في التخلص من هذه الآفات والانحرافات، بل أكثر من ذلك قام على تجفيف منابعها في الضمير من خلال وضع منهج رباني، يقوم على أسس محكمة، وركائز متينة ثابتة، على خلاف المناهج الأخرى التي هي من نتاج الرأي واستعمال الفكر التي تتعامل مع الأمراض الاجتماعية المهلكة، فتقرها صاغرة تحت الأمر الواقع، وتعمل على تبريرها كما جرى في ظواهر متعددة.

ومن هنا ندرك حقيقة لماذا لم توفق جهود التغيير الحديثة في تحقيق ترقي المجتمعات عموماً، وتوصلها إلى ما تصبوا إليه من السعادة والاستقرار والأمن والأمان والسلام، وغير ذلك من الأمور المهمة التي تهفوا إليها الأمم، رغم ضخامة المسعى، وتوفر الدواعي، والأسباب، وبذل الطاقات الهائلة، وحصر الجهود العظيمة في سبيل معالجة قضايا ومشكلات جسيمة تنخر في جسم الأمم.

أجل لقد اتسمت تلك الجهود الجبارة بعدم النجاح والفلاح، وكأنها تسير إلى الوراء، أو تدور حول نفسها، بل أصبحت عبارة عن جعجعة بدون طحين.

ترى ما الخلل حتى كانت هذه النتائج المزرية ؟ إنه القصور المنهجي الذي يشكل أبرز أسباب الاختلال. إن الفعل التغييري الذي يؤتي ثماره، ويكون أثره موفقاً هو المنهج الذي يتجاوز كل المناهج الوضعية القاصرة والعاجزة، وذلك بسبب عزل مناهجها للغيب والوحي الإلهي كمصدر أساس للإدراك والفهم، على خلاف المنهج الذي سلكه القرآن الكريم وطبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم في توجيه وتنفيذ التشريعات التي تضمنها الكتاب العزيز في كل ناحية من نواحي الحياة، حتى كان لها الأثر في واقع العرب وحياتهم، ووصلت باعتصامها لهذه المبادئ الرشيدة، والتوجيهات السديدة إلى الكمال اللائق بها، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ سورة آل عمران آية (١١٠) وهذا ما سأوضحه في هذا البحث المتواضع الذي سميته : (منهج القرآن الكريم في التدرج وأثره في التغيير).

ونظراً لأهمية هذا الموضوع، وخصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من العلماء والمفكرين - قديماً وحديثاً - قد اهتدوا إلى ضرورة وأهمية التغيير، ليس في العالم العربي والإسلامي فحسب، بل في العالم كله.

نظرا لذلك، فإني أقدم هذا البحث عسى أن يستفيد منه من يطلع عليه، ويسترشد بما فيه من ترتيب أفكار، على الرغم من علمي بتوافر الأعمال في هذا المجال، فما تغيب عن ذهني جهود علمائنا الذين لم يقصروا في ذلك فجزاهم الله كل خير، فمعذرة إليهم عما جئت أقدمه من محاولة متواضعة في دراسة هذا البحث الذي أبتغي به الأجر والثواب، فكل طالب علم له نصيب يناله.

وقد كانت خطتي في هذا البحث تحقيقاً للغرض المنشود أن جعلته في:

- مقدمة ومبحثين وخاتمة:
- المبحث الأول: الأطر العامة لدراسة منهج القران في النزول، ويتضمن مطلبين:
- المطلب الأول: تعريف المنهج وبيان أهميته.
- المطلب الثاني: ضوابط العمل التغييري.
- المبحث الثاني: التدرج في عملية الإنجاز والآثار التي تترتب على ذلك ، ويتضمن مطلبين:
- المطلب الأول: معنى التدرج والدليل عليه من كتاب الله تعالى.
- المطلب الثاني: أهمية التدرج والآثار التي تترتب عليه، ويتضمن قسمين:
القسم الأول: تجاوب الوحي مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتضمن ثلاثة مقاصد:
- المقصد الأول: إثبات رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ودليل إعجاز القرآن الكريم.
- المقصد الثاني: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم.
- المقصد الثالث: منهج القرآن الكريم في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم.
- **القسم الثاني**: تجاوب الوحي مع المؤمنين ويتضمن مقاصد رئيسة مهمة منها:
- المقصد الأول: انتزاع العقائد الباطلة ومعالجة العادات السيئة.
- المقصد الثاني: سياسة التدرج في التشريع ومنهجه في بيان الأحكام.
- المقصد الثالث: سياسة التدرج في إبراز العظات.
- المقصد الرابع: سياسة التدرج في التجاوب مع الأحداث والنوازل.

هذا وبالله التوفيق

المبحث الأول
الأطر العامة لدراسة منهج القرآن في النزول

يقتضي منهج البحث العلمي ومن أجل تحقيق الغرض من دراسة موضوع هذا البحث، أن أتحدث عن بعض المفاهيم المتعلقة به، لصلتها به صلة وثيقة، لكي تكون نبراساً ومنارة يهدى على ضوئها معرفة الوصول إلى الحق الذي تطمئن إليه القلوب، وترتاح إليه النفوس.

المطلب الأول
تعريف المنهج وبيان أهميته

أولا: تعريف المنهج:

جاء في لسان العرب[١]: نهج: طريقٌ نهجٌ بين واضح وهو النهج. وأنهج الطريق: وضح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيناً. قال يزيد بن الخذاقا العبدي:

ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت   سبل المكارم والهدى تعدى

أي: تعين وتقوي، والمنهاج: الطريق الواضح، ونهجت الطريق: أبنته وأوضحته وسلكته.

وقال الراغب الأصفهاني[٢]: المنهج الطريق الواضح، ونهج الأمر وأنهج: وضح، ومنهج الطريق ومنهاجه قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سورة المائدة آية ٤٨.

---

(١) – ابن منظور / لسان العرب / تصحيح أمين محمد عبد الوهاب وزميله محمد العبيدي /دار إحياء التراث العربي –بيروت / الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ–١٩٩٩م / فصل النون /نهج، وسأشير إليه لاحقا: لسان العرب

(٢) الراغب الأصفهاني / أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل ت٥٠٣هـ / معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم / ضبطه: إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٨هـ –١٩٩٧م /ص٥٦٢ / وسأشير إليه لاحقا / معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم.

وجاء في مختار الصحاح[٣] نهج الطريق: أبانه وأوضحه، ونهجه –أيضاً– سلكه، والمنهاج: الطريق الواضح.

أخلص مما بينت آنفاً إلى أن كلمة منهج في اللغة يدور معناها حول مفهوم أساس، هو: الطريق الواضح الموصل إلى غاية معينة، وهدف مقصود. والمراد به هنا:الطريق المؤدي إلى التعرف على الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة[٤]، أو هو مجموعة أو جملة من الخطوات المدروسة أو العمليات المنظمة التي تقوم على مبادئ وقواعد للوصول إلى تحقيق هدف محدد[٥].

ثانيا: أهمية المنهج:

من الحقائق الثابتة: أن ما يراد تغييره بكفاءة عالية لا بد من أن يكون عبر منهج علمي منضبط يحكم خطوات الإنسان في جميع مراحل الدورة الإنجازية للفعل المراد استبداله، فهو الطريق الوحيد أمام الإنسان،لأنه يساعده على الاستعمال الأمثل لطاقاته ووقته، ويجنبه التيه والضلال والفوضى والتذبذب، ومنه وحده تحدد المقاصد والأهداف، وتخطط المراحل وتختار الأدوات، وتنتقى الوسائل والأساليب، وفق خطة مدروسة، ونظام دقيق، وحسابات قائمة على فهم لسنن الهداية، ودراية بالواقع المراد تغييره.

---

(٣) الرازي/الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي / مختار الصحاح/ دار الفكر العربي / بيروت٢٩٧

(٤) انظر حسين عبد الحميد رشوان / العلم والبحث العلمي / دراسة في مناهج العلوم عند العرب – الناشر المكتب الجامعي بالإسكندرية ص١٤٣، وانظر منهج البحث العلمي عند العرب، للأستاذ جلال محمد عبد الحميد موسى / دار الكتب اللبناني / بيروت ط١ / ١٩٧٢ ص ٢٧٣

(٥) هذا التعريف مقتبس من الأستاذ الطيب برغوث / منهج النبي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها /ص٨٩

فالمنهج إذا ضرورة حيوية ملحة، لا يجوز إنكاره، ولا إغفاله، ولا التهاون فيه بأي حال من الأحوال.

وعلى ضوء ما تقدم، فإن المفكر الواعي إذا ما أراد أن يكون له الوجود المتميز والدور الفاعل في تغيير واقع مرير بواقع سليم، لا بد من سلوك المنهج السديد، لتحقيق هذا الغرض السامي، فهو بالنسبة له ذو قيمة عظيمة، وضرورة من الضرورات الفكرية الهامة، وبدونه لن يكون العمل الذي يقوم به أكثر من فوضى لا يضبطه نظام، وتخبط عشوائي لا يرتبط بهدف، وسيرة مظلمة عمياء لا تسترشد الطريق الموصل إلى الضالة المنشودة المبتغاة، ولو فرض وحصل تغيير فسيكون سطحياً شكلياً صورياً، وإخفاء مؤقتاً للأمراض المستعصية سرعان ما تعود إلى ما كانت عليه بل أشد قسوة.

فرسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو يتعامل مع الجاهلين وظروفهم التي كانوا يعيشونها، العقدية والأخلاقية والاجتماعية ونحوها – قد استند على منهج أصيل، وضعه له رب العالمين، ورسم لنفسه برنامجاً محدد الأهداف والوسائل والأدوات والمراحل، كانت كافية في حل تلك المشكلات المتأصلة في حياة العرب، وإزالة ما هو باطل.

فما أحوجنا نحن المسلمين – اليوم – إلى هذا المنهج القويم الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ للتخلص مما نعانيه من مشكلات كثيرة، لا سيما وقد ظهر من يدعو من العلماء الأجلاء إلى ضرورة وأهمية التغيير في كثير من قضايا العالم الإسلامي؛ لكي يسترجع قواه ومجده وعزته وكرامته، ويتبوأ مكانته بين الأمم الأخرى، ويدخل في دور حضاري علمي مميز، يحقق به هويته.

المطلب الثاني
ضوابط العمل التغييري

الضابط في اللغة:

جاء في لسان العرب: الضبط: لزوم الشيء وحبسه، ضبط عليه وضبطه يضبط ضبطاً. وقال الليث: الضبط: لزوم شيء لا يفارقه في كل شيء. وضبط الشيء: حفظه بالحزم، والرجل ضابط، أي: حازم[(٦)].

وجاء في معجم مقاييس اللغة (ض ب ط) ضبطه ضبطا وضباطة حفظه بالحزم، وأضبط: يعمل بيديه جميعاً[(٧)].

والمقصود به -على ضوء ما جاء في قواميس اللغة العربية-: الأسس والقواعد والأطر التي يلتزم بها المفكر، ولا تفارقه في شيء، ويحبس تغييره عليها. فإذا خرج عنها ولم يلتزم بها، فإن مشروعه في التغيير لن يجدي شيئاً.

فالعمل الأول الذي ينبغي أن يقوم عليه الفكر الواعي هو: أن يعيد للإنسان المنهجية بكل ضوابطها؛ حتى تصبح جزءاً من كيانه ووجوده، فيتحول المنهج إلى حقيقة واقعية، وليس مجرد قواعد لا تمس إلا الجانب النظري في حياة الإنسان.

فالتلازم بين التغيير وبين هذه الضوابط أمر حتمي؛ حتى يتحقق الغرض المطلوب في الواقع البشري بفعالية وكفاءة. وإليك بيان أهم الركائز والضوابط التي ينبغي الاعتماد عليها في قضية التغيير:

---

(٦) لسان العرب ج٨ ص١٥-١٦ مادة ضبط.

(٧) الفيروزآ بادي / إمام أهل اللغة / مجد الدين محمد بن يعقوب ت٨١٧هـ / القاموس المحيط / توثيق يوسف محمد البقاعي / دار الفكر - بيروت ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ص ٦٠٧ مادة ضبط - وسأشير إليه لاحقاً (القاموس المحيط).

فهم القرآن الكريم واستيعاب حقائقه:

من الأمور المهمة في قضية التغيير: الإحاطة والاستيعاب الواعي للأنموذج. ولما كان المراد: القرآن الكريم، لذا يتعين إدراكه واستيعابه في كل ناحية من نواحيه، العقدية والسلوكية والفكرية ونحوها. فهو حجر الأساس في الحكم على كل هذه القضايا، وهو الذي تقاس به القيم، وتحاكم إليه العادات والتقاليد والنظم كلهاقال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ...﴾ سورة النساء آية ٥٩.

ومن هنا نعلم كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام كانوا شديدي العناية بحفظ القرآن الكريم ودراسته وفهم معناه وتطبيقه في الواقع، ذلك، أن دراسة القرآن الكريم والوقوف على مقاصده وأسراره وما تضمنه من شريف الأسرار دون تطبيقه أمر لا يظهر أهمية تلك الدراسة ولا ذلك الحفظ.

فالواجب على المسلم أن يطبق معاني القرآن الكريم ويجسدها في سلوكه، مستنداً إلى معرفة وافية بما يقوم به، مدركاً واعياً بحقيقة الفعل الذي يمارسه والغاية التي ينشدها، روي عن أبي عبد الرحمن السلمي انه قال: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا)(٨).

إذاً، الخطوة الأولى العملية المنهجية في الجهد الدعوي هي: عرض القضايا كلها الاجتماعية وغيرها على القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا

---

(٨) انظر تفسير دقائق التفسير لابن تيميه – مؤسسة علوم القران – دمشق – ط٢- سنة النشر ١٤٠٤ ط٢- ج٢ص ٢٢٧، وتفسير مجاهد – المنشورات العلمية – بيروت ج١/ ص٦٨، وتفسير الدر المنثور للسيوطي – دار الفكر – بيروت سنة ١٩٦٣ ج٢/ ٦٩، وانظر الذهبي / الدكتور / محمد حسين، / التفسير والمفسرون – مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة – ١٤٠٧هـ-١٩٨٥م- الجزء الأول / ص٥١.

﴿يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء الآية ٦٥.

فالله تعالى (يقسم بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً؛ ولهذا قال: (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)[٩].

وعلى ضوء هذا الضابط يصبح فهم حقائق القرآن، وإدراك مغزاه ومقاصده في الخلق مناط العمل التغييري ومداره.

ومن هنا يتعين على من يحمل دعوة الحق ورسالة الإسلام أن يكون في مستوى من المعرفة بكتاب الله المجيد، حتى يكون في استطاعته إيصال ما تضمنه من معان وأسرار وأهداف تعني الإنسان، مدركاً حقيقة الفعل الذي يمارسه وبشكله السليم والغاية التي يحققها من القيام به. ولنا في رسول الله أسوة حسنة في هذا المضمار، فقد كان الأنموذج الأول، وكذلك الصحابة الكرام الذين استوعبوا معاني هذه الأمة، وتفاعلوا معها، فارتقوا على مستوى رسالتها فكانوا المعبرين الحقيقيين عن مقصدها.

والحق الذي نراه: أننا في هذه الظروف العصيبة التي يشعر فيها المسلمون بالضعف والهوان والفرقة وعدم الاستقرار لا نجد مخرجاً لهم من هذا كله إلا بما أشرنا إليه آنفا: تدبر القرآن الكريم ودراسته بفهم ووعي، ثم تطبيقه في كل نواحي الحياة تطبيقاً عملياً واعياً مبصراً، مصحوباً بالقناعة التامة أنه من عند الله تعالى، والاعتزاز بالانتماء إليه.

---

(٩) انظر: القزويني/ محمد بن يزيد أبو عبد الله/ سنن ابن ماجه/دار الفكر/ بيروت/ ت: أحمد فؤاد عبد الباقي ج١/٧، وج٢ ص٨٢٩، وانظر الشيباني/ أحمد بن حنبل أبو عبد الله/ مسند أحمد/ مؤسسة قرطبة، مصر، بدون / ١/١٦٥، وانظر ابن كثير/ أبو الفداء إسماعيل بن كثير ت٧٧٤/ تفسير القرآن العظيم - دار الفكر - بيروت - تحقيق: محمد علي الصابوني، المجلد الأول ص٤١٠، وسأشير إليه لاحقاً تفسير ابن كثير.

إنهم إن فعلوا ذلك أصبحوا أمة قوية عزيزة كريمة، لها كيانها ووجودها..بل إن تطبيق القرآن الكريم، وجعله حقيقة واقعية ملموسة سيكون الخطوة الأولى في المسار الصحيح لإنشاء حضارة إسلامية عريقة مزدهرة وقوية مرة أخرى، لأن تعاليم القرآن تطلب من المسلم أن يكون ايجابياً مبادراً إلى كل فعل فيه خير ليس له فحسب، بل للبشرية جمعاء، فهي تحثنا أن نتعلم كل علم مفيد حتى نستطيع أن نعمر الكون الذي جعلنا الله مستخلفين فيه؛ لتصبح حياة الإنسان على أكمل صورة ممكنة.

- ومن الضوابط الأخرى التي ينبغي الحرص عليها: الوقوف على الظواهر المراد علاجها، فهولا يقل أهمية عن إدراك البديل الذي أشرت إليه آنفا، لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره.

فالذي يتولى عملية التغيير لا بد من تحديد نقطة الانطلاق في مباشرة العمل، أعني التعرف على واقع الإنسان من جانب، والوضع الاجتماعي من جانب آخر، وتكوين صورة عامة عنه، وهذا أمر في غاية الأهمية، لا يمكن غفلانه أو السكوت عنه. إذ كيف نتعامل مع واقع مرير كواقع العرب -مثلاً- عند نزول القرآن الكريم ولا نعرفه؟ هذا في الحقيقة يقتضي التردد في كيفية التعامل معه، فإذا ما أحطنا به علماً، وعرفنا أحواله، تكيف موقفنا منه، وسهل تعاملنا معه، وتمكنا من التأثير فيه.

وكلما اتصفت المعلومة بالدقة والإتقان والصحة والواقعية واتصفت بالإحاطة والشمول، أي كافية في إعطاء صورة صادقة مكتملة من حيث العمق عن أحوال المجتمع، فلا شك أن هذه المعلومات التي تتصف بهذه الصفات تضمن سلامة الفهم، وتحقق النتائج المتوخاة. على خلاف من لا يتنبه إلى التعرف على الواقع الذي يريد تغييره فسيقع في كثير من الأخطاء المؤثرة سلباً على سير عمله، وسيخفق فيه، ولن ينجز الذي يريد، إذ أن تحقيق قرارات سليمة صائبة وفعالة بدون معلومات وافية كافية عن القضايا التي يريد لها حلاً، ويبتغي لها علاجاً أمر يصعب تحقيقه.

ومن هذا المنطلق، ونظراً لأهمية المعلومات ودورها المميز في فهم الظاهر، فقد أولاها القرآن الكريم- كما أشرت سابقاً - عناية فائقة، واهتماماً

خاصاً، كما يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] (أي لا تتبع ما لاتعلم، قال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وقال القتبي: لا تتبع الحس والظنون...إلى القول: فهذه الآية تنهى عن قول الزور، والقذف، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة)[١٠].

لذا يتعين على كل من يتولى عملية التغيير، أن تكون لديه عناية خاصة بالتعرف على الوضع الاجتماعي؛ لتحديد المراد تغييره بما هو خير، حتى يتمكن من وضع المنهج المناسب والإمكانات المطلوبة لإنجاح عمله بإتقان، وإذا لم تتحقق تلك المعرفة، ويجد نفسه في احتكاك مباشر معه قد يصطدم بالواقع، وهو ما يحول دون تحقيق المهمة المراد إنجازها.

ومن الركائز لضمان فعالية الإنجاز بناء/ الإنسان والاعتناء/ به عقدياً وخلقياً، وقد بدا ذلك جلياً في كتاب الله تعالى، مما يدل على هذا أهمية البعد المنهجي، فقد أراد الله تعالى من الإنسان أن يكون مصدر خير لبني نوعه، لا مصدر شر، وذلك بتهذيب نفسه، وتربيتها على الفضائل الشريفة، والخصال الرفيعة، والعادات الحسنة، والحقيقة أن كلمة الخلق لا تقف عند حدود ما يتحلى به الإنسان من صفات حميدة أو خلال رذيلة، ولكنها تتجاوز ذلك المعنى الصغير لتشمل كل سلوك الإنسان وعلاقاته بربه أو بالناس أو بالكون، وبهذا المعنى الواسع امتدح الله تعالى رسوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وعبرت عنه السيدة عائشة حين سئلت عن النبي صلى الله عليه وسلم: (كان خلقه القرآن)[١١] إذ لا يمكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ممارسة رسالته دون أن تتحقق فيه هذه الصفات، وكذلك الصحابة الكرام والتابعين ومن سار على دربهم إلى يوم الدين.

إذاً، قضية بناء الإنسان على الفضيلة وتحليته بأحلى الكمالات من الأمور المهمة التي حرص القرآن الكريم على تحقيقها. ومن هنا نرى العلماء يقررون

---

(١٠) القرطبي / عبد الله بن محمد بن أحمد الأنصاري / الجامع لأحكام القرآن – دار الفكر – بيروت ط١ ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م ج١٠/ ص ٢٥٧-٢٥٨ وساشير إليه لاحقا الجامع لأحكام القرآن.

(١١) أخرجه مسلم / كتاب صلاة المسافرين١/٥١٣ رقم ٧٤٦.

أن الإنسان هو الحقيقة الكبرى التي ينبغي أن يدور حولها مشروع الفكر الحضاري الواعي؛ ليكون (ذا رسالة قد حملها، وعليه أداؤها؛ لتفسير حقيقة استخلافه في الأرض معنى وقصداً)[١٢] كما يقول ابن نبي: (إن الفكر الحضاري الذي لا يواجه مشكلة الإنسان ذاته فإنه فكر ما زال يدور في دوامة الجزئيات المسكنة التي لا تغير الإنسان جذرياً، لأن الإنسان هو الشرط الأساس لكل حضارة، وأن الحضارة تؤكد دائماً الشرط الإنساني)[١٣].

أجل إن الفكر المستنير يجب أن يتصدى لبناء الإنسان الذي يحمل الأمانة ومعاني الرسالة والرشاد. وينمي في ذاته معاني القيم والمبادئ السامية، والمفاهيم الراقية، ويركز على تكوينه الكامل الذي يحتوي على ثلاثة عناصر مهمة:

أولها: التكوين العقدي:

فإذا كان يغدو من الضروري التركيز على أمور مهمة لها تعلق بمنهج التغيير والذي تكفل في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فإن الجانب العقائدي أول هذه الأمور، وهذا ما أثبته الواقع، فإن عقيدة الجيل الأول من صفوة الصفوة القائمة على التوحيد، هي التي أوصلت المسلمين إلى ما وصلوا إليه من التفوق في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ونحوها. فالله تعالى لم يزين قلوبهم بحلية الإيمان الصادق، والعبادة الخالصة والخلق السمح إلا بعد أن مهد لذلك برد عقائدهم الفاسدة وتقبيح عاداتهم الباطلة شيئاً فشيئاً، وهذا في الواقع أدعى إلى قبوله وعدم رفضه.

فالعقيدة الصحيحة تؤدي إلى تعميق البعد الروحي والاتصال بالله تعالى، ومعرفته القائمة على العلم. ومعرفة الله تعالى هي: (حقيقة الحقائق، وثمرة وجود الإنسان وغايته، والإنسانية لا تترقى وتسمو بالتقدم العلمي إذا لم تتبع

---

(١٢) الدريني/ فتحي/ خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم/ الطبعة الأولى/ بيروت – بيروت – مؤسسة الرسالة ١٩٨٢ص٩١.

(١٣) بن نبي/وجهة العالم الإسلامي ص١٧٤.

هذا التقدم تقدماً إيمانياً، لأن أعلى مرتبة للإنسانية، وأفضل مقام للبشرية هي: معرفة الله تعالى، وأن أزهى سعادة للأنس والجن وأحلى نعمة هي: محبة الله تعالى النابعة من تلك المعرفة)[١٤] وليس من شك إن هذا النوع من العلم يغرس في النفس الإنسانية قيماً عدة، وفضائل شتى، وفي مقدمتها: تقوى الله تعالى، ومعلوم أن الله تعالى قد أولاها أهمية قصوى وقيمة كبرى، يدرك هذه الحقيقة من هو على صلة بكتاب الله تعالى، فقد ذكرها في أكثر من موضع في محكم آياته، وما كان ذلك إلا لما يترتب عليها من آثار مباركة فهي الخصلة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، ولو كانت هناك فضيلة أصلح للعبد من هذه الخصلة لأمر بها عباده ووصى بها خواصه، ولذا كان الاقتصار عليها كما صرح بذلك أفاضل العلماء[١٥].

أجل إن تقوى الله تعالى هي التي تجعل الإنسان يستحضر قيمة وجوده في حياته، وتهذب نفسه، وتوطنه على الأخلاق الرفيعة سراً وعلناً ظاهراً وباطناً، وتعوده على مراقبة الله تعالى، لتكون تصرفاته كلها في طاعته ورضاه، وتحقيق هذه القضايا أمر مهم في تحقيق عملية الإنجاز. ومن هنا ندرك السبب الذي يحمل معتنقي الشريعة الإسلامية على طاعتها في السر والعلن والسراء والضراء، لأنهم يؤمنون بأن الخوف ومراقبة الله تعالى نوع من العبادة يقربهم إلى الله تعالى، وأنهم يؤجرون على هذه الطاعة، وانطلاقاً من هذا المبدأ نرى الإسلام قد مزج بين أحكام الدنيا والدين، وذلك ليضمن للشريعة الإسلامية الديمومة والخلود، وبث في المحكومين روح العبودية الحقة، والطاعة الصادقة، وجعل لها قوة في الردع، ليست لأي قانون وضعي آخر مهما أحكم وضعه، وأحسن تطبيقه وتنفيذه ... وسنوضح ذلك بنماذج حية في المطالب اللاحقة إن شاء الله تعالى.

---

(١٤) النورسي/ بديع الزمان/ المكتوبات: ترجمة إحسان قاسم/ الطبعة الأولى – استنبول دار سوزر للنشر ١٩٩٢م ص٢٨٩

(١٥) انظر ابن الأزرق/ محمد بن علي – بدائع السلك في طبائع الملك – تونس: الدار العربية للكتاب – ١٩٧٧م ٢/ ٨٤٤.

ولا شك أن توفير مثل هذا الجو الإيماني -بالمفهوم السابق- يساعد كثيراً إلى جانب بناء القدرات المنهجية الإجرائية على تحقيق الموضوعية في تفسير الواقع الإنساني، وهو ما يساعد دون شك في إنجاح المرحلة الأساسية الأولى في عملية التغيير، ويحقق الأسس الضرورية لنجاح المرحلة اللاحقة حينما يشرع في مباشرة تنفيذ العمل وإنجاز الأهداف المرسومة المحددة.

الثاني: التكوين السلوكي:

ومن الأمور التي حرص الإسلام على تحقيقها في بناء الإنسان: التكوين السلوكي والعملي القائم على العلم المتصل بالوحي. والحقيقة إن جعل العلم أساساً في هذه القضية أمر في غاية الأهمية، لان في ذلك استقامة لمضامينه، وتوافقا لدلالاته وعدم اختلافها وتناقضها مع الإرادة الإلهية، وبهذا تتفتح له كنوز المعرفة، وتتجلى أمامه ينابيع الحكمة والتفكير الذي يكون مآلها الحقيقي معرفة الله تعالى، وتجسيد هذه المعرفة في القلب والسلوك.وإذا كان القرآن الكريم قد حرص عند بناء الإنسان على التكوين السلوكي الذي مداره وأساسه الأخلاق الفاضلة، فإنه أولى فضيلة الإحسان أهمية خاصة فهي من دعائم هذه الأخلاق التي ينبغي الوقوف عندها، والاهتمام بها؛ لأنها تعالج أغوار المشكلات الاجتماعية بسمو أخلاقي سامق.

ويقصد بالإحسان[١٦] هنا: مفهومه الواسع الذي يضمن احترام الآخرين وحبهم والصفح عنهم والتجاوز عن أخطائهم، والترفق بهم، ولين الجانب لهم، من أجل تذليل العقبات النفسية بينهم وبين الدعوة، وتمهيد السبيل أمامهم للوقوف على حقيقتها[١٧].

فالإحسان في هذا المفهوم يعد من الثوابت في العمل الدعوي بعامة، فله

---

(١٦) جاء في القاموس المحيط: الإحسان ضد الإساءة، والحسنة ضد السيئة ص ١٠٧٢.
وفي لسان العرب الحسن: ضد القبيح ونقيضه ١٣/ص ١١٤.

(١٧) انظر برغوث / منهج النبي في حماية الدعوة ص٢٩٨/٣١٩.

أهمية قصوى في بناء العلاقات الاجتماعية في المجتمع[18]، ولذا نرى الكتاب المجيد قد أعطاه أهمية محورية. قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد جاءت هذه الآية عقب ما تعرض إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق تحمله، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (بمجامع مكارم الأخلاق التي من جملتها الإغضاء عنهم)[19].

والحقيقة: أن سمو الأخلاق الذي أشرت إليه –آنفاً– لا يكون وليد الصدفة، إنما يعبر عن خلق استقر في الضمير حتى غدا سجية وطبعاً، تصور تصرفات المسلم دون تكلف. وفي هذا الجانب من تهذيب النفس ما لا يخفى، فإن الإنسان بدون أخلاق أهل الإيمان إذا اشتد باسه وقويت سلطته حمله ذلك على التصرف مع الناس بالجور والتعسف.

ولا شك أن الانطباع الأول الذي يكونه الآخرون عن الداعي إلى الله تعالى مهم جداً، فإذا كان سيئاً أعاقه وسد الطريق أمامه. وإن كانت الأخرى بأن يكون الداعي قد تربى على أخلاق القرآن، ونقى نفسه من شوائب النقص، واتصف بالأخلاق الرفيعة سهلت فتح الطريق أمامه، وأعانته على عملية التغيير. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: الآية ٤١] فالله تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا؛ لعلمه بما انطوت عليه ضمائرهم من كرائم الخصال القرآنية[20].

ومن هنا كان لزاما عَلى المشتغلين بالدعوة أن يولوا قضية الأخلاق بالمفهوم الواسع الأهمية الكبرى في التربية؛ حتى يعدوا بها الإنسان الواعي نفسياً وعقلياً واجتماعياً ونحوها.

---

(١٨) مالك بن نبي / ميلاد مجتمع ص٢٥.

(١٩) أبو السعود / محمد بن محمد مصطفى العمادي الحنفي / إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – دار الكتب العلمية– بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م ج٣/ص٧٠. وسأشير إليه لاحقاً: تفسير أبي السعود.

(٢٠) الالوسي ١٧/١٤٩.

الثالث: البناء العلمي:

ومن عناصر بناء الإنسان الذي لا يقل شأناً عن العنصرين السابقين؛ والمتعلق بمنهج التغيير (الجانب العلمي)، فهو بحق يُعَدُّ من الثوابت في العمل الدعوي عامة، فله منزلة خاصة في نهضة المجتمع وتطوره، ندرك ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على العلم، وتبين أهميته ومكانته ومنزلته[٢١]، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: الآية ١١].

على أن العلم الذي حث عليه الشارع ليس مقصوراً على العلوم الدينية فحسب – وإن كانت لا تضاهى لما تزود به الإنسان من طاقات إيمانية – لكنه يتسع ليشمل كل ما يفيد البشرية من العلوم العصرية، عقلية كانت أو علوم تجريبية، فالإسلام لم يفرق في العلم وطلبه بين تلك العلوم كلها، فكل منها يؤكد صاحبه ويعضده، فالعلم والدين صنوان لا يفترقان.

وإذا كان الإسلام قد حض على طلب العلم المبني على الأسس الصحيحة، إنما كان كذلك لما يترتب عليه من مقصد عظيم، وغاية نبيلة هي بناء الإنسان الصالح، ليتمكن من القيام برسالته في الحياة، والتي من أجلها جعله الله تعالى خليفته في الأرض التي تتلخص بمعرفة الله تعالى، إذ أن مقياس النفع والإفادة من العلم هو مدى إسهامه في تحقيق الهدف الأكبر من خلق الإنسان، وهو العبودية لله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]. وما يتبع ذلك من المنافع والمقاصد.

ومن هنا يتعين على الدعاة خاصة، وأفراد المجتمع الإسلامي عامة إذا ما أرادوا تغيير الواقع، أن يتسلحوا بالعلم الشرعي، وأن يصلوا إلى أرقى المستويات في شتى التخصصات العلمية الأخرى، كما يتعين عليهم أن يشحذوا الهمم من أجل بناء الأمة الإسلامية، واستنبات العلوم من تربة التراث الإسلامي،

---

(٢١) انظر سورة المجادلة الآية ١١، وسورة فاطر آية ٢٨، وسورة الزمر الآية ٩.

وعلى أيدي رجال المعرفة والفكر المستنير من أبناء المسلمين، إنهم إن فعلوا ذلك سلكوا طريقاً سديداً في عملية التغيير. وأما إذا بقي المسلمون على ما هم عليه يعيشون في فلك العلوم الغربية، بالإضافة إلى الظلم الذي ارتكبه الغرب إزاءهم حين فرض عليهم أنظمته التربوية الحديثة القائمة على المادية البحتة، قاصداً بذلك أن ينشئ بين المسلمين أجيالاً تتنكر لهويتها الإسلامية نلمسها في انحراف الشباب، والتخلف العلمي المقيت الذي لحق بكثير من أبناء المسلمين، فبغضت دينها، ونظرت إلى تاريخها الحافل بالمعطيات نظرة احتقار واستهزاء، وآمنت بأن حياتها الفكرية والعملية أصبحت بالية لا تصلح لهذا العصر، حتى رسخ في أذهان الكثير من المسلمين أنه لا معارف إلا ما يدون في الغرب، ولا أخلاق إلا أخلاق الغرب.[٢٢] ناهيك عن كارثة كبرى أخرى أن تساق مؤسساتنا التعليمية إلى المسلخ كي يراق دمها بسبب الإهمال أو عدم معالجة الأمور، والمرحلة الحالية التي يمر بها التعليم في عالمنا العربي والإسلامي حساسة بدرجة كبيرة، والمستجدات التي تمر بها تلقي بظلالها وتؤثر بواقعها على الحقل التربوي والتعليمي، فيما يقع على المؤسسات عبء كبير في حماية قلب المجتمع النابض، أي: الشباب والشابات من جميع الانحرافات.

أقول: إذا بقي المسلمون على هذه الحال، وبهذا الوضع المشين، وفوق كل هذا أن كثيرا منهم لا يدرك أهمية الدين وآثاره وأهدافه، فكيف يتأتى لهم التغيير؟

ولنا أن نتصور كيف تكون حال أمة دون أبنائها المتعلمين المهيئين للتجديد والتغيير؟ ولنا أن نتصور جسداً بدون دماء ولا عقل مدبر، اللهم، إن هذا مستحيل، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والظل لا يستقيم والعود أعوج.

- ومن الخطوط الواضحة في منهجية الدعوة: مراعاة رغبات الآخرين والتعايش مع همومهم، فهو مؤشر قوي يدل على مدى أهميته في ضمان فعالية الإنجاز، وتحقيق التحكم الأمثل في الواقع. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبين كيف كانوا يربطون بين

(٢٢) دراسات في الثقافة الإسلامية / تأليف الدكتور محمد عبد السلام وإخوانه، مكتبة دار الفلاح - الكويت الطبعة السادسة، ١٤١٨هـ - ص٥٨، ٥٩ نقلاً عن مجلة البعث الإسلامي الهندية عدد صفر ١٣٨٨هـ

دعواتهم بقضايا الواقع الذي كانوا يتعاملون معه ويواجهونه باستمرار. تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: الآية ٨٤]. نرى أن الله تعالى -قد ربط دعوة شعيب عليه السلام بمشكلة اقتصادية- قضية المكيال والميزان، وكذلك غيره من الأنبياء قد ارتبطت دعواتهم بجوانب متعددة من الواقع الإنساني؛ مما يدل بصراحة ووضوح على الاهتمام بهذا الضابط.

وقد سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المنهج، والأمثلة على ذلك كثيرة، مما يؤكد رسوخ هذه القاعدة وبروزها نجتزئ منها، صنيعه مع أبي سفيان الذي ظل إلى وقت متأخر عدواً للإسلام، فقد أكرمه صلى الله عليه وسلم، وأشبع رغبته في الفخر وحب الوجاهة يوم فتح مكة، عندما أعلن أن (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)[٢٣]. وقد استطاع صلى الله عليه وسلم بذلك أن يستأصل الحقد من قلبه، وطمأنه أن المكانة التي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئاً في الإسلام، إن هو أخلص وبذل في سبيله[٢٤].

وهذا موقفه صلى الله عليه وسلم مع خالد بن الوليد، وكيف استدرجه إلى الإسلام، فقد قال لأخيه: وهو في مكة أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال صلى الله عليه وسلم: ما مثله جهل الإسلام، ولو كان يجعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقدمناه على غيره. فبلغ ذلك خالد بن الوليد، وكان أخوه قد كتب له رسالة يخبره بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، وحثه على المبادرة إلى الإسلام قائلاً: (أما بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد!) (فاستدرك يا أخي ما قد فاتك، وقد فاتتك مواطن صالحة)[٢٥] فزاده رغبة في الإسلام، ونشطه للخروج فأجمع الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(٢٣) سيرة ابن هشام٤/٤٦.

(٢٤) محمد رواس قلعجي/ التفسير السياسي للسيرة ٢٧٢.

(٢٥) انظر السيرة الحلبية / ٢/ ٧٧٧، وانظر دلائل النبوة ج٤/ ٣٥٠، وانظر ابن سعد/ الطبقات الكبرى ٧/ ٣٩٤

قال خالد: فطلبت (من أصاحب إلى، محمد فلقيت عثمان بن طلحة، فقلت له الذي أريد، فأسرع الإجابة، فخرجنا جميعاً، فلما كنا بالهداة (إذا عمرو بن العاص بها، فقال: مرحبا بالقوم، فقلنا: وبك. قال: أين مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ فقال: ما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد قال: وذاك الذي أقدمني. قال: فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة، فأنخنا بظهر الحرة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله فسر بنا، فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله، فلقيني أخي، فقال: أسرع، فإن رسول الله قد أخبر بك، فسر بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعنا المشي، فاطلعت عليه، فما زال يتبسم إلي حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد علي السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال رسول الله: «الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير» قلت: يا رسول الله، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق، فادع الله أن يغفرها لي. فقال رسول الله: «الإسلام يجب ما كان قبله» قلت: يا رسول الله، علي ذلك؟ قال: اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك).[(٢٦)]

- ومن الضوابط التي ينبغي مراعاتها:

التأني وعدم التسرع في معالجة **القضايا**؛ وفي ذلك احترام سنة السير المرحلي في الأمور، وفي القرآن الكريم لفتة جلية تدل على ذلك.قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [سورة هود: آية ٧]. وإنما خلق السماوات والأرض في ستة أيام مع قدرته تعالى على إيجادهما دفعة واحدة في لحظة واحدة، وقد أشار المفسرون إلى (أن ذلك يدل على الاختيار، لأنها إذا حدثت دفعة واحدة فربما يتوهم متوهم أن ذلك وقع على سبيل الاتفاق والصدفة، بخلاف ما إذا وقع على سبيل التعاقب، مع موافقته المصلحة والحكمة، فإنه يدل على أن ذلك بإحداث محدث عظيم وقادر عليم.

(٢٦) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي /١/ ٤١٢، والسيرة الحلبية، ٢/ ٧٧٧، ودلائل النبوة ٤ / ٣٥١

ومنها: أن الفاعل إذا قدر على إحداث شيء على التعاقب والتوالي كان ذلك أقوى لعلمه وقدرته.

ومنها: أنه يعلم عباده الرفق والتأني في الأمور والصبر عليها)[٢٧].

فهذا شأن الله تعالى في خلق السموات والأرض في ستة أيام، فكيف بالمخلوق إذا ما أراد تسوية وضع شاذ؟ فلا بد من سلوك المنهج السديد في التوجيه والإرشاد والتحرك في نطاق المستطاع؛ حتى يحقق المراد.

لقد أثبت الواقع أن الفعل القسري - مهما كانت شدته - يبقى فعلاً عقيماً سطحياً، لا يمكن أن يحقق الغرض المنشود، بل ربما كان العكس بأن تحدث ردود فعل مضادة لا يعلم نتائجها السيئة إلا الله تعالى.

ولذا كان من حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن مفرقاً، وأن تتم عمليات تنزيله على الواقع المراد تغييره بتدرج حتى يمهد الطريق أمام الناس، ويوطن نفوسهم على الواقع الجديد، وتسكن أفئدتهم إليهوقد أدرك الرسول هذه الحقيقة، ولم تكن بعيدة عنه وطبقها في الواقع. وسأجلي هذه القضية لاحقا بذكر نماذج حية تدل على ذلك إن شاء الله تعالى.

روي أن عبد الملك انتقد والده عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد في عدم الاستعجال في التغيير الاجتماعي المطلوب في عصره قائلا له: ما لك لا تنفذ الأمور؟ فوالله لا أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق، فرد عليه عمر: لا تعجل يابني، فإن الله تعالى ذم الخمر مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة، ويكون من ذلك فتنة.

يعقب الشاطبي على هذه الحادثة بالقول: (وهذا معنى صحيح معتبر في الاستقراء العادي، فكل ما كان أحرى بالمصلحة، وأجرى على جهة التأنيس،

(٢٧) انظر تفسير الفخر الرازي /دار الفكر / بيروت ١٤١٥هـ /١٩٩٥ج١٣ص١٠٥،١٠٤، ١٠٦، وانظر ابن عاشور / محمد الطاهر / تفسير التحرير والتنوير / الدار التونسية ١٩٨٤م، الجزء الثامن - القسم الأول ص١٦١، وسأشير إليه لاحقا: تفسير التحرير والتنوير: وانظر مذكرة في تفسير سورة هود، للشيخ عبد الحميد الشاذلي مدرس التفسير في كلية أصول الدين - جامعة الأزهر

وكان أكثرها على أسباب واقعة، كان أوقع في النفوس، حين صارت تنزل بحسب الوقائع)[٢٨].

فهو بثاقب فكره وسديد رأيه، فهم الواقع الذي يتعامل معه، واستوعبه، وأدرك أن الذي يحرص على تغييره أمر لا يعين عليه إلا الله، قد درج عليه الصغير، وفني عليه الكبير، حتى حسبه الجميع أنه دين لا يرون الحق غيره، فاستطاع بهذا الحس المرهف الدقيق أن يحدث تحولاً رائعاً في مسار الناس، وتغيير ما كانوا عليه من أوضاع شاذة، رغم قصر مدة خلافته[٢٩].

- ومن الضوابط المهمة لإنجاح عملية التغيير التي لا تقل أهمية عن سابقاتها:

اختيار الوقت المناسب، فهو يعد بعداً منهجياً لا مناص منه، ولا بد من سلوكه، عن أبي وائل قال: كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها، مخافة السآمة علينا[٣٠]، ذلك أن هناك ظروفاً قد يعيشها الفرد تحول دون الاستماع والإصغاء، كالظروف النفسية، أو الاجتماعية، وتجعله أكثر ما يكون نفوراً عن التوجيه والإرشاد، كما قد تمر عليه ظروف تجعله أكثر استعداداً لتلقي الحق. والداعية الموفق هو الذي يدرك هذه الحقيقة، ويحسن تقدير الموقف، ويقدر الوقت الجيد، فينطلق لإنجاز مهمته التي أوجب الله تعالى عليه القيام بها، وما ظاهرة عبادة الأصنام عند العرب عنا ببعيد، فقد كانت هذه

---

(٢٨) الشاطبي / إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي /ت٧٩٠ / الموافقات في أصول الشريعة – ضبط وتفصيل الأستاذ محمد عبدا لله دراز، بدون تاريخ ج٢ص٩٤-٩٥، وسأشير إليه لاحقاً الموافقات للشاطبي.

(٢٩) انظر ابن عبد الحكيم – سيرة عمر بن عبد العزيز ص٣٧.

(٣٠) البخاري / الجامع الصحيح المختصر – دار ابن كثير بيروت /١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م ط٣/ ج٣/ص٣٩- رقم الحديث ٧٠، وانظر مشكاة المصابيح ج٣/ص٧٢ رقم الحديث ٢٠٧، وانظر فتح الباري/ كتاب العلم/ باب من جعل لأهل العلم أياما ١/ ١٣٣.

الظاهرة منتشرة مهيمنة على الواقع العربي بصورة جلية، ومع ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يباشر بتحطيم الأصنام، بل جاء الأمر الإلهي بعدم سبها، كما قال الله تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٠٨].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية (دليل أن الداعي إلى الحق، والناهي عن الباطل، إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرام، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد، كان الترك به أولى، بل كان واجباً عليه، وما أنفع هذه الآية، وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله، المتصدين لبيانها للناس، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات؛ عناداً للحق، وبغضاً لاتباع المحققين)[٣١].

سياسة حكيمة سلكها الرسول صلى الله عليه وسلم يفتقر إليها كثير من الدعاة، فهو عليه الصلاة والسلام لم يتسرع في تحطيمها؛ لأنه يدرك أن ظاهرة الأصنام ما هي إلا تجسيد لمحتوى عقدي، يظل يجدد هذه المظاهر، يعيد تمثيلها ما لم يتغير من جذوره[٣٢]، فانصب جهده عليه الصلاة والسلام إلى تغيير هذا المحتوى، ولم يلجأ إلى معالجة المظاهر والأعراض الخارجية، وقد حقق الله مقصده في نهاية الأمر، عند التحول العقدي والفكري والاجتماعي العميق والشامل في الواقع العربي، وانقلب الإنسان الجديد على جاهليته، يحطمها ويبني لها أنموذج الحياة الإسلامية)[٣٣]، وهذا موسى عليه الصلاة والسلام يدرك

---

(٣١) الشوكاني /محمد بن علي محمد ت١٢٥٠هـ / فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة – بيروت، الجزء الثاني ص١٥٠، وسأشير إليه لاحقاً تفسير الشوكاني.

(٣٢) برغوث / الطيب / الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية الطبعة الأولى – الجزائر – مكتبة رحاب ص٧٦.

(٣٣) زيدان عبد الكريم /أصول الدعوة الطبعة الثالثة / مكتبة دار المنار الاسلامية١٣٩٦هـ ص٤٠٩.

أهمية اختيار الوقت مع مراعاة التمهل وعدم العجلة في الدعوة لاستئصال تلك الظاهرة الخطيرة، وقد نجح عليه الصلاة والسلام فعلا في تعيين الوقت لإنجاز مهمته في القضاء على عبادتها والتخلص منها والتقرب بها إلى الله تعالى. يقول الله تعالى على لسان موسى وهو يحدد موعد ومكان المواجهة مع خصومه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ [طه: الآية ٥٩].

وفي سبب هذا الاختيار جاء في الكشاف: (قيل في يوم الزينة: يوم عيد كان لهم في كل عام، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقاً، ويتزينون في ذلك اليوم، وإنما واعدهم ذلك اليوم؛ ليكون علو كلمة الله تعالى، وظهور دينه، وكبت الكافر، وزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الغاص؛ لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر ويحصل العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر)[٣٤].

ومما يدل على أهمية اختيار الوقت: قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله تعالى عنها: **(لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألصقتها بالأرض، وجعلت لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة)**[٣٥].

ومن القضايا المهمة التي عالجها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بسياسته الحكيمة ونكائه وفطنته: قضيه جهاد الكفار، فلم يأمر بقتالهم ابتداء دفعة واحدة، وإنما كان ذلك على مراحل سلكها معهم صلى الله عليه وسلم، وبيان ذلك ذلك:

إن المتتبع لتطور تشريع الجهاد في عصر نزول القرآن الكريم، يجد أنه أكثر التشريعات تدرجاً، ومراعاة لأحوال المسلمين، وارتباطاً بها من حيث القلة

---

(٣٤) الزمخشري / محمود بن عمر بن محمد أحمد جار الله / تفسير الكشاف / تحقيق محمد مرسي عامر / الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧/ مكتبة عبد الرحمن محمد – القاهرة ج٤ ص٣٧ وسأشير إليه لاحقاً / تفسير الكشاف.

(٣٥) صحيح مسلم /باب نقض الكعبة وبنائها ج٢/ ٩٦٩حديث رقم ١٣٣٣، وانظر الترمذي / باب ما جاء في كسر الكعبة ج٣/ ٢٢٤ – حديث رقم ٨٧٥.

والكثرة، والقوة والضعف، ويمكننا بالإجمال أن نبين المراحل التي مر بها تشريع الجهاد كالتالي:

- **مرحلة الدعوة المكية:** فقد كان جهاده صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة جهاداً بالصبر على تحمل الأذى الذي يقع على النفس والجسم.
قال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: آية ٩٤]، وقد صدع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة، ولكن أنكروا عليه دعوته ونبوته، فصبر امتثالا لأمر الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: آية ٣٥].

- **مرحلة الإذن بالقتال:** وقد جاءت هذه المرحلة في ظروف صعبة وقاسية كان يمر بها المسلمون، حيث الهجرة، وهم في حالة من الفقر وترك الديار والأموال، كما جاء ذلك صريحا في كتاب الله تعالى، ومع ذلك لم يترك المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام، فقد لاحقوهم بتهديداتهم إلى المدينة المنورة، فلم يزل الوضع يتأزم، والظروف تزداد صعوبة وخطورة يوما بعد يوم، حتى جاء الإذن المنتظر؛ إيذانا بعهد قوة ومكنة للدعوة الإسلامية، ولم يكن هذا الإذن إلا بعد أن ازداد عدد المسلمين وقويت شوكتهم.

وقد نزلت آية الإذن بالقتال في نهاية السنة الأولى، أو بداية السنة الثانية من الهجرة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ الحج ٣٩، وكانت الانتصارات التي سجلها التاريخ، وما كان ذلك إلا بدراية رسول الله صلى الله عليه وسلم وسياسته الحكيمة في عدم التسرع في محاربة الأعداء من جانب، واختيار الوقت المناسب من جانب آخر، ولو لم يكن كذلك لوقع ما لا تحمد عقباه.(٣٦)

---

(٣٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة / للدكتور محمد أبو شهبة، والجهاد في الكتاب والسنة للاستاذ / أبو فارس محمد عبد القادر /دار الفرقان /

المبحث الثاني
التدرج في عملية الإنجاز والآثار
التي تترتب على ذلك

نزول القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل ثابت بطريق التواتر، وكان هذا النزول متدرجاً، فما معنى التدرج؟ وما الدليل عليه من الكتاب والسنة؟ وما الآثار التي تترتب على ذلك؟ هذا ما سأوضحه في هذا المبحث الذي ضمنته مطلبين: الأول: معنى التدرج ودليله. والمطلب الثاني: أهمية التدرج والآثار الناجمة عنه.

المطلب الأول
معنى التدرج ودليله

أولا: معنى التدرج:

جاء في معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: درج: الدرجة نحو المنزلة، لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود دون الامتداد على البسيط، كدرجة السطح والسلم، ويعبر بها عن المنزلة الرفيعة. ويقال لقارعة الطريق: مدرجة، ويقال فلان يتدرج في كذا، أي يتصعد فيه درجة درجة، ودرج الشيخ والصبي درجاناً مشى مشية الصاعد في درجه(٣٧).

وفي لسان العرب:

يا ليتني زرت غير خارج   أمَّ صبيٍّ قد حبا ودارج

ودرجه إلى كذا واستدرجه بمعنى: أدناه منه على التدريج(٣٨).

---

(٣٧) معجم مفردات القران ص١٨٨.

(٣٨) لسان العرب/دار صادر/بيروت/ الطبعة الأولى/مادة درج درج/ الجزء الثاني ص٢٦٦.

والمراد به: نزول الكتاب المجيد، على النبي صلى الله عليه وسلم، بواسطة جبريل عليه السلام، مفرقاً على حسب الوقائع والحوادث والمناسبات التي تعاقبت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، خلال ثلاث وعشرين سنة، وهي مدة رسالتة.

ثانيا: دليل التدرج من الكتاب والسنة

أما دليله من الكتاب الكريم، قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٠٦] أي فصلنا بعضه عن بعض في النزول، فأنزلناه منجماً، ولم ننزله جملة واحدة لهذه الغاية. قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (التأكيد بالمصدر للمبالغة، والمعنى: أنزلناه منجماً مفرقاً؛ لما في ذلك من المصلحة، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لفروا ولم يطيقوا)[٣٩] ويقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: الآية ٣٢].

(كذلك) جواب لهم (قريش أو اليهود) كذلك أنزل مفرقاً، والحكمة فيه أن نقوي بتفريقه فؤادك؛ حتى تعيه وتحفظه، لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً عقب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة لعبل به وتعيا بحفظه)[٤٠].

وأما ما جاء في السنة المباركة: فقد ورد فيها ما يدل على نزول القرآن منجماً. ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال –وهو يحدث عن فترة الوحي– فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [سورة المدثر: الآيات ١ – ٥][٤١]، وعن عائشة

---

(٣٩) تفسير الشوكاني، فتح القدير /ج٣ ص٢٦٤.

(٤٠) تفسير الكشاف ج٣ ص١٤٧، العبل: الضخم من كل شيء /انظر لسان العرب ج١١ص ٤٢٠ وانظر مختار الصحاح للرازي ج١ص ١٧٣.

(٤١) البخاري / صحيح البخاري/ بدء الوحي / باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ج١ ص٥ رقم

رضي الله تعالى عنها: إن أول ما نزل صدر سورة (اقرأ) إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥][٤٢].

المطلب الثاني
أهمية التدرج والآثار التي تترتب على ذلك

بينت -آنفاً- أن الله تعالى فصل بعض القرآن عن بعض في النزول، معللًا إنزال القرآن مفرقاً: للقراءة على الناس على مكث، والحقيقة ليس معناه التعليل بالقراءة على هذا الوجه لذاتها، بل معناه: التعليل لما يترتب عليها من حكم جليلة، ومنافع عظيمة، قد بلغت من التجلي والوضوح والكشف حداً لا تخفى على أحد. جاء في الإتقان: (ولولا أن الحكمة الإلهية - كما يقولون - اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقاً؛ تشريفاً للمنزل عليه)[٤٣].

هذا، وقد لوحظ في التدرج حكم بارزة أخذت من الآيتين السابقتين الدالتين على نزول القرآن منجماً جعلتها في قسمين:

- **القسم الأول**: تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرت في آية الفرقان.

- **القسم الثاني**: تتعلق بالأمة والسير في تربيتها على سنة التدرج، وهي ما أشارت إليه آية الإسراء. وليس في الآيتين ما ينفي أن هناك أسراراً أخرى سوى هاتين الحكمتين الأساسيتين، وهاك تفصيل ذلك، وبالله التوفيق:

---

(٤٢) المرجع السابق رقم ٣، ومسلم / الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ج١/ ص١٤٠ رقم ١٦٠.

(٤٣) السيوطي / جلال الدين عبد الرحمن ٨٤٩- ٩١١م / الإتقان في علوم القرآن / تقديم وتعليق - مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير / دمشق / الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ج١ ص١٣٢. وسأشير إليه لاحقاً: الإتقان في علوم القرآن.

القسم الأول

تجاوب الوحي مع الرسول صلى الله عليه وسلم

المقاصد والثمرات التي تعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم من نزول القرآن عليه مفرقاً كثيرة، لا يسمح المقام - هنا - بعرضها كلها، لذا سأذكر ثلاثة مقاصد.

أولا: إثبات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ودليل إعجاز القرآن الكريم

- لقد رأى العلماء المحققون أن في تنجيم القرآن الكريم دليلاً على إثبات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، كما أن فيه حجة على إعجازه، وبيان ذلك:

- إن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل إنما هو إقناع الناس برسالته، وأنه مرسل من عند الله تعالى، وتلك مهمة لم تكن سهلة ميسورة.

ذلك أن النفوس إذا درجت على شيء وألفته لم يكن من اليسر انصرافها عنه، والإلف هو الذي يعرقل دائماً عمل الدعاة والمصلحين عبر التاريخ.

- بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقرير أنه مبعوث من عند الله تعالى، وأن الوحي ينزل عليه تباعاً، فماذا كان موقف العرب مما دعاهم إليه؟ لقد قابلوا دعوته بصراع قوي، وتعنت شديد، فاق كل تصور. فكان لا بد من اتخاذ أحكم الوسائل المطلوبة لمواجهة هذا التغالي في المعارضة والسخرية من دعوته.

- نبههم ابتداء إلى أنه ليس من المعقول أن يكون الإلف وما اعتادوا عليه مقياساً للحق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: الآية ١٧٠].

وأخيراً كان لا بد من إفحامهم بآيات التحدي من كتاب الله تعالى المجيد. ومعلوم أن التحدي شرط مهم من شروط المعجزة، وعنوان مميز لها، دال عليها. وقد سلك معهم في هذا التحدي - الذي يقوم على التدرج - طريق الإعجاز، فطالبهم أولا: أن يأتوا بمثله. قال الله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ

إن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور: الآية ٣٤]. وطمأنهم أنهم لو أرادوا الاستعانة بالجن لا مانع من ذلك، وأن يعاون بعضهم بعضاً في هذا الإتيان. وقد جاء ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: الآية ٨٨]، فلو تحقق في زعمهم أدنى قدر من الصدق، فما المانع من تقديم مثل القرآن الكريم؟ وخصوصاً أن هناك قواسم مشتركة بينهم وبين متحديهم من حيث العربية، وأنهم فرسان البيان والفصاحة، فإن القدرة على الأمر من دواعي الإتيان به(٤٤).

ومع هذا كله استمروا يصفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب على ربه، ونحو ذلك، فعاد القرآن الكريم إلى تحديهم بدرجة أخف من سابقتها، ومرحلة أخرى أهون ممن سبقها، جرياً على سنة التنزيل مع الخصم، وأسلوب التدرج في معالجة هذا الإنكار حتى يفتضح عواره، فطالبهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقط: قال الله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ [هود: الآية ١٣]، فإذا افترض لهم أن القرآن مفترى كما يزعمون، فما المانع من أن يأتوا بعشر سور مفتريات، ومحمد ليس أوسعهم في القول بيانا؟ قال أهل البيان عند تفسير الآية السابقة: (مفتريات: أي أنكم قد عجزتم عن الإتيان بسورة، أي قطعة واحدة أو آيات من مثله، فيما هو عليه من البلاغة والأخبار بالمغيبات والحكم والأحكام.. وادعيتم –مكابرة– أنه مفترى فارغ عن الحكم، فأتوا بعشر سور مثله في مجرد البلاغة، غير ملتزمين بحقائق المعاني، وصحة المباني)(٤٥) أليس فيما تقدم من هذا التحدي في المرحلتين السابقتين دليل على أحقية القرآن الكريم، ودليل قاطع على أنه كلام الله وحده، وأن محمدا رسول الله؟ ومع ذلك استمروا بالإنكار متذرعين بحجج واهية، فتنزل معهم تنزلاً آخر موسعاً لهم المولى جل جلاله غاية التوسع، حتى لا يكون لهم أدنى

---

(٤٤) انظر أبا السعود / محمد بن محمد بن مصطفى العمادي / إرشاد العقل السليم ج٤/ص١٩٢ والألوسي ج١٢ ص٢٠ وانظر السعدي ج١/ص٣٧٨.

(٤٥) انظر البحر المحيط ج٥/ص٢٠٨ والموافقات ج٣/٣٨٨.

حجة يتذرعون بها، وحتى يسقيهم من العجز ثمالته، ومن الخزي نهايته، فطالبهم بأقل ما يكون به التحـدي (بسورة واحدة) كسورة الكوثر، أو ما يعادلها في كتاب الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: الآية ٣٨]. فالله تعالى ينكر عليهم قولهم: إن محمداً قد افترى القرآن الكريم، فخاطب رسوله بقوله: (قل)؛ (تبكيتا لهم وإظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة، إن كان الأمر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) أي في البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى على وجه الافتراء، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرنا مني في النظم والعبارة)[٤٦].

هكذا تبين لنا بما لا مجال للشك فيه: إعجاز القرآن الكريم على أبلغ وجه وآكده، لأن القرآن لو نزل دفعة واحدة، لقالوا: لا نستطيع معارضته، كيف وقد نزل جملة واحدة، ولو أنه نزل مفصلاً قطعاً قطعاً لعارضناه؟ فأراد الله تعالى أن يقيم الحجة عليهم، ويقطع عليهم دابر المعذرة والعلل، فأنزله على حسب الوقائع والأحداث، وكأن الله تعالى يقول لهم: بعد نزول قطعة منه: إن كنتم ترتابون في أن هذا المنزل على هذا الوضع من عند الله تعالى فائتوا أنتم بقطعة مشابهة له.

وقد ذكرت آنفا، أن الله تعالى تحدى الناس كافة بالقرآن على مراتب متعددة؛ ليقيم عليهم الحجة تلو الحجة، ولو أن القرآن الكريم نزل دفعة واحدة لما أمكن تكرر التحدي في المرة تلو المرة، وثبوت عجزه المرة بعد الأخرى.

وأيضاً في تنجيم القرآن الكريم: دليل على إعجازه من وجه آخر: حيث جاء محكم السرد، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذاً بعضه برقاب بعض، آخره مساوق لأوله، وأوله مُواتٍ لآخره، فكيف استقام له هذا التناسق العجيب والسبك الدقيق، على حين أنه نزل مفرقاً ولم ينزل جملة، بل تباعد ما بين أزمان النزول تفرق الأحداث والوقائع مدة نزول القرآن، ونراه مع ذلك قطعة واحدة مترابطة

---

(٤٦) أبو السعود / محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ت٩٨٢ / وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن ط١٤١٩،١هـ/١٩٩٩م /دار الكتب العلمية - بيروت ج٣/ص٢٤٠-٢٤١، وسأشير إليه لاحقا تفسير أبي السعود، وانظر تفسير الكشاف ج ٣/ ص١٢.

الحلقات، متآخية الفقرات، لا تنبو كلمة عن كلمة، ولا تنفر آية من آية، بل كله يتصف بالفصاحة والبلاغة، ولا يسمو بأسلوبه في بعض الآيات وينزل في البعض الآخر؛ مما يدل على أنه ليس من كلام البشر، بل من كلام الله تعالى، دل به على مصدره، وهدى إلى الله تعالى موحيه ومنزله، مالك الأسباب والمسببات، ومدبر الخلق والكائنات، العليم بما كان، وبما سيكون(٤٧).

ثانيا: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم

من الحكم المتعلقة برسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث نزول القرآن الكريم مفرقاً: تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم، بما يتجدد نزوله من الكتاب المجيد بعد كل حادثة؛ لان في ذلك برهاناً ساطعاً، ودليلاً قوياً على أن الله تعالى يتولاه بعنايته ورعايته عند كل طارئ وفي كل موقف، كما أن في ذلك تجديداً لصلته به بواسطة جبريل عليه السلام حيناً بعد حين، وذلك كله يملأ نفسه غبطة وسروراً، ويثبته في الشدائد، ويقوي عزمه على المضي قدماً في مهمته الكبرى المضنية، وهي: نشر الإسلام، وتبليغ الدعوة.

وقد أشار إلى هذه الحكمة الجليلة أبو شامة في قوله (فإن قيل: ما السر في نزوله منجماً؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله تعالى جوابه. فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: الآية ٣٢]. يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل. فأجابهم تعالى بقوله: (كذلك)، أي: أنزلناه مفرقاً (لنثبت به فؤادك) أي: لنقوي به قلبك. فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة(٤٨).

---

(٤٧) انظر الزر قاني / محمد عبدا لعظيم / مناهل العرفان في علوم القرآن / دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢هـ – ١٩٩٩، ج١ /٥٩ – ٦٠ بتصرف.

(٤٨) الإتقان في علوم القرآن ج١ / ص١٢٣-١٢٤، وانظر البرهان في علوم القرآن ج١/ص٢٣١.

هذا، وقد سلك القرآن الكريم لتحقيق هذا الغرض العظيم طرقاً عدة، منها: ما يسوقه إليه من قصص الأنبياء ولا هدف لها في أكثر المواطن التي ذكرت فيها إلا تثبيت قلب الرسول، والفئة المباركة، والاطمئنان بانتصار الإسلام والتبشير بانتصار الحق على الباطل، حيث يبين في تلك القصص الواردة: أن العاقبة إنما هي للأنبياء وأتباعهم. وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: الآية ١٢٠].

ومن الطرق الأخرى: حثه صلى الله عليه وسلم على تحمل أعباء الرسالة، واحتمال الأذى من المعاندين، محبباً إليه التأسي بمن سبقه من الأنبياء والرسل ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الأحقاف٣٥، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

كما نرى الله تعالى ينهاه عن الحزن، ويعلمه أن الكافرين يعاندون الحق بغياً من عند أنفسهم. كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٣٣]. فأنزل الله تعالى هذه الآية: (مسلياً لنبيه صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: (قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون) أي: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك، وحزنك وتأسفك عليهم. كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: الآية ٨]، (فإنهم لا يكذبونك) أي: ولكنهم يعاندون الحق، ويدفعونه بصدورهم)[٤٩]. الطرق التي سلكها القرآن الكريم بتجدد نزوله في تقوية قلبه صلى الله عليه وسلم كثيرة[٥٠].

(٤٩) ابن كثير / أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ت٧٧٤ / تفسير القرآن العظيم / دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي / ج٢/١٢٩

(٥٠) لمعرفة المزيد من هذه الطرق يرجع إلى كتب علوم القرآن آلاتية: مناهل العرفان في علوم القرآن ج١/ص٣٩، والمدخل لدراسة القرآن للشيخ محمد أبو شهبة، الطبعة الثالثة – دار اللواء – الرياض /١٤٠٧- ١٩٨٧ص٦٩ وكتاب البيان في مباحث في علوم القرآن للشيخ عبد الوهاب عبد المجيد غزلان – مطبعة دار التأليف – ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م ص٦٤.

وبعد: فلو لم يتجدد نزول الوحي المسلي المؤنس له صلى الله عليه وسلم المرشد إلى الصبر الجميل والاقتداء بصفوة خلق الله تعالى من الرسل ... ولو انقطع عنه الوحي المثبت لقلبه، فماذا سيكون حاله عليه الصلاة والسلام، وهو بشر يملك الأحاسيس والمشاعر؟ أليس في ذلك سبيل لاستيلاء الحزن على قلبه، واستبداد اليأس بنفسه؟.

ثالثاً: ومن صور تجاوب الوحي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: قضية تربوية، فقد كان رسول الله أميا لا يقرأ ولا يكتب. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: الآية ٢]، فالآية تشير إلى أن الله تعالى (بعث رجلاً أمياً في قوم أميين (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) يقرؤها عليهم، مع كونه أمياً مثلهم لم تعهد منه قراءة، ولم يعرف بتعلم، وقراءةُ أميٍّ آيةٌ بينة)(٥١). ففرق عليه؛ لييسر عليه حفظه وفهمه، .

ومعلوم أن رسول الله كان حريصاً على ذلك – وقد أشرت إلى ذلك سابقاً – حتى نزل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ [القيامة: الآية ١٦] (أي: لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي؛ لتأخذه على عجل؛ مخافة أن يتفلت منك (إن علينا جمعه) في صدرك، حتى لا يذهب عليك منه شيء (وقرآنه) أي إثبات قراءته في لسانك، (فإذا قرأناه) أي أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل (فاتبع قرآنه)، أي: (قراءته)(٥٢).

وهذا الهدف الذي أراده الله تعالى فيما أراد من حكم لنزول القرآن الكريم مفرقاً: هو غاية ما توصل إليه أهل التربية في حفظ النصوص الطويلة، وتسهيل فهمها، وهذا المعنى ما كان يخطر على بال البشر في ذلك العصر، وفي هذه البيئة البدوية الأمية، مما يدل على أن منزل القرآن الكريم على هذه الطريقة

---

(٥١) تفسير الكشاف / تحقيق محمد مرسي عامر / دار المصحف / القاهرة ج١٦ ص١١٢.

(٥٢) الشوكاني / محمد بن علي بن محمد / فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير / دار المعرفة – بيروت / المجلد الخامس ص٣٣٨ وانظر التسهيل لعلوم التنزيل ج٤، ص١٩٥.

التربوية الرائعة هو الله تعالى خالق الكون، العالم بالطبائع البشرية والنفوس والأسرار ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: الآية ١٤].

القسم الثاني
تجاوب الوحي مع المؤمنين

بينت – فيما سبق – أن الحكمة الجليلة تقضي أن ينزل القرآن الكريم منجماً على حسب الدواعي المتجددة والحوادث المتكررة، حتى تتهيأ عقول الناس، وتتوطن نفوسهم على الواقع الجديد، وتسكن أفئدتهم إليه، وكنت قد وضحت في القسم الأول بعض النماذج التطبيقية المتعلقة برسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل تأكيد قاعدة التدرج، وفي هذا القسم سأتناول بعض الأمور الأخرى المتعلقة بالمؤمنين والتي حرص القرآن الكريم على معالجتها، مقرراً أهمية هذا المنهج السديد، وأثره في تحقيق عملية الإنجاز، والتغيير المذهل في الواقع الإنساني منها:

أولاً: انتزاع العقائد الباطلة ومعالجة العادات القبيحة

كان العرب عند نزول القرآن الكريم يعبدون الأصنام، ويشركون بالله تعالى، ويسفكون الدماء، ويشربون الخمر، وغير ذلك من المنكرات، فماذا فعل القرآن الكريم مع هؤلاء الذين كانت هذه عقائدهم، وتلك عاداتهم؟ (والنفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة، والإقلاع عما اعتقدته بمجرد النهي عنه، لأن للعقائد – حتى ولو كانت باطلة، وللعادات ولو كانت مستهجنة – سلطانا على النفوس، والناس أسراء ما ألفوا ونشأوا عليه، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة وطالبهم بالتخلي عما هم عليه منغمسون في حمأته من كفر وجهل ومنكرات مرة واحدة، لما استجاب له أحد، ولما وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم في أداء مهمته، ولعاد ذلك بالنقص على الشريعة[٥٣]، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى في انتزاع العقائد الباطلة أولاً.

وهذا مقصد عظيم من خالق الكون باتباع هذا المنهج الدقيق العميق أن ينهاهم عن عبادة غير الله تعالى، ويأمرهم بالإيمان بالله تعالى وصفاته إخلاص

---

(٥٣) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم – أبو شهبة ص٧٢ وانظر كتب التفسير الآتية الكشاف، القرطبي والألوسي وابن كثير في تفسير آيات الخمر.

العبودية له وحده، حتى إذا ما تحقق ذلك دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر، ثم الإيمان بالرسل والملائكة، حتى إذا ما اطمأنت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه، أخذ بالنهي عن المنكرات، بطريق التدرج، نلمس ذلك على سبيل المثال مما ورد في سورة النور التي تحدثت عن كثير من العادات القبيحة المتفشية عند العرب عند نزول القرآن الكريم؛ كالزنا، واللعان، والقذف، وغيرها، وكيف تمت معالجتها، بل واستئصالها وتخليص المجتمع منها، وبيان ذلك:

المتأمل لهذه السورة الكريمة يرى أنها نزلت منجمة في المدينة المنورة، وقد ابتدأ نزولها في أواخر السنة الأولى للهجرة، أو أوائل السنة الثانية منها، إلى النصف الثاني من السنة التاسعة للهجرة[٥٤] والذي يوضح ذلك: قوله تعالى ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ النور آية٢، نزلت في قضية الصحابي مرثد بن أبي مرثد[٥٥] مع عناق المشركة، التي اشتهرت بالزنا، حين استأذن رسول الله صلى اله عليه وسلم أن يتزوج منها، فنزلت هذه الآية، ومرثد قد استشهد في صفر في غزوة الرجيع التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة[٥٦]. فيكون أول هذه السورة قد نزل قبل سنة ثلاث، في أول السنة الثانية، أو أواخر الأولى.

ثانيا: الآية التي شرع بها اللعان نزلت في حادثة لعان عويمر العجلاني رضي الله تعالى عنه، وكان لعانهما في شعبان سنة تسع للهجرة على القول الأصح[٥٧].

ثالثا: الآيات التي تحدثت عن آيات الإفك وما تبعها، فقد نزلت بعد غزوة المريسيع، وكانت تلك الغزوة سنة ست للهجرة على الراجح[٥٨].

---

(٥٤) تفسير التحرير والتنوير ١٨ / ١٣٩

(٥٥) سنن الترمذي ج٥/ص٣٢٨ رقم الحديث ٣١٧٧ وانظر سنن النسائي الكبرى ج٣/ ص٢٦٩ رقم الحديث ٥٣٣٨، وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد محمد سعد بن كنيع أبو عبد الله ت٢٣٠ طبعة دار ادر – بيروت ١٣٨٠- ١٩٦٠م ج٢.

(٥٦) ابن حجر العسقلاني الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد / الإصابة في تمييز الصحابة / طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى في مطبعة السعادة في مصر ١٣٢٨م ج٣ ص٣٦٨، وانظر التحرير والتنوير ج١٨/ص١٣٩، ١٤٠

(٥٧) ابن حجر العسقلاني فتح الباري / شرح صحيح البخاري / ج١١ ص٣٧٠.

(٥٨) ابن هشام، ج٢، ص٢٩٧.

رابعا : قوله تعلى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣﴾ [النور: الآية ٣٣]. فقد نزلت هذه الآية في النصف الثاني من السنة الثانية للهجرة. وقد دل على ذلك ما رواه الطبري رحمه الله تعالى(٥٩).

والحقيقة أن الاسترسال في شرح ما تضمنته هذه السورة، لما كان ليس من أغراض هذا البحث فهذا أمر يطول، إلا أني أقرر أن نزولها كان مفرقاً كما تبين ذلك من أسباب نزول آياتها، فهي تدل دلالة واضحة أنها واكبت تكوين المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة، من سنواته الأولى إلى سنواته الأخيرة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقد تضمنت قواعد وأصولاً في بنائه تبرز هويته وخصائصه القائمة على المثل العليا والمبادئ الراقية، كما وضعت هذه السورة الكريمة التدابير الوقائية من أسباب الفساد، وغير ذلك من الأهداف النبيلة والمقاصد السامية. وما كانت هذه الأمور لتحصل لو أن هذه السورة الكريمة نزلت دفعة واحدة، إنما الحكمة الإلهية اقتضت أن تنزل منجمة على حسب الحوادث؛ لتحقيق الغرض المنشود في الواقع.

ثانيا: سياسة التدرج في التشريع ومنهجه في بيان الأحكام

بينت -فيما سبق- أن سنة الله تعالى الحكيمة في تشريعه، التدرج في التشريعات بتقـديم الأصول على الفروع، والإجمال على التفصيل، وقد أثمرت هذه السياسة التشريعية ثمرتها وعادت على الدعوة الإسلامية بالقبول والإذعان.

والتدرج في التشريع قسمان:

القسم الأول: التدرج في تشريع جملة الأحكام، بمعنى أنها لم تشرع كلها، إنما شـرعت شيئاً فشيئاً ففي ليلة الإسراء قبل الهجرة فرضت الصلاة، وفي السنة الأولى من الهجـرة شرع القتال، ثم شرعت أحكام من النكاح كالصداق..

---

(٥٩) الطبري / الإمام أبو جعفر محمد بن جرير ت٣١٠ / جامع البيان عن تأويل آي القرآن - طبعة دار الفكر - بيروت /١٤٠٨ - ١٩٨٨م ج١٨/ ١٣٣.

القسم الثاني: التدرج في تشريع الحكم الواحد، فكثير من الأحكام لم تشرع كما هي عليه الآن من أول الأمر، بل تدرج الشارع في شرعها، فالصلاة مثلاً فرضت ركعتين أولا، ثم لما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم فرضت أربعاً.

روى البخاري ومسلم عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ففرضت أربعاً، وتركت صلاة السفر على الأولى)[٦٠]، والأمثلة على ذلك كثيرة إلا أني أخص بالذكر عادة كانت من أكثر العادات شيوعاً وانتشاراً هي (شرب الخمر)، وأبين المنهج الذي سلكه القرآن الكريم في تقرير تحريمها.

أولا: فقد أشار الله تعالى إشارة خفية إلى ذم الخمر فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ النحل٦٧. فقد امتن على عباده بما أعطاهم إياه من تلك الثمرات التي يتخذون منها سكراً ورزقاً حسناً، فعد السكر غير الرزق الحسن. قال أبو السعود (والآية وإن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهيتها وإلا فجامعة بين العتاب وبين المن)[٦١]. ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ البقرة ٢١٩ فوجه الأنظار إلى أن الحرمة إنما تقوم على غلبة الشر، فمهما يكن للخمر من منافع اقتصادية في المتاجرة بها، ومن منافع أخرى ظاهرية كادعاء تحسن الصحة والجود والكرم أو الشجاعة، فان إثمها أكبر من نفعها، فتلك علة كافية لتحريمها.

والحقيقة أن هذه الآية غيرت نفوس كثير من المؤمنين الذين كانوا يظنون أن شرب الخمر فضيلة، وأن المفاسد والمضار التي تحويها أكثر من المنافع، ويُعَدُّ هذا أول خطوة تحريكاً للمنطق التشريعي في نفوس المؤمنين، وتبعتها مرحلة أخرى.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ

---

(٦٠) البخاري، دار ابن كثير بيروت ١٤٠٧هـ /١٩٨٧ط٣ت مصطفى البغا،ج٣، ص١٤٣١ رقم ٣٧٢٠،/ صحيح مسلم ج١ ص ٤٧٨رقم ٦٨٥.

(٦١) تفسير أبى السعودج٤/ص٧٥.

﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ النساء ٤٣. فنهاهم الله تعالى عن الصلاة وهم سكارى، ولما كانت الصلاة فريضة لا بد من القيام بها، فقد أوجب عليهم أن لا يتناولوا الخمر بكميات تسكرهم ليستطيعوا أن يؤدوا فريضة الصلاة خمس مرات وهم غير سكارى. فامتنعوا عن شربها في الأوقات التي لا يفيق شاربها من سكره قبل وقت الصلاة التالية. وبعد أن أصبحت النفوس مهيأة لترك الخمر، وأصبحت فرص السكر نادرة بطبيعة الحال، حرم الله تعالى عليهم الخمر في صيغة جزم فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: الآية ٩٠] فقالوا: انتهينا ... وانتهوا بالفعل، وأصبحوا ينتظرون حدود الله تعالى في شارب الخمر. وهكذا أفلح الإسلام في محاربة هذه العادة، وما كان لبشر مهما أوتي من قريحة وقادة، وذكاء خارق، وسيلان في الذهن، ومهما أوتي من مال، أن يتوصل إلى هذا الطريق الحكيم، لأنه من صنع الله تعالى العليم الخبير (وإذا كان العالم غير الإسلامي قد أصبح الآن يفكر في تحريم الخمر كما أصبحت النفوس مهيأة لقبول التحريم فمعنى ذلك أن الشريعة الإسلامية بما قررته من تحريم الخمر دعت الناس أن يتقدموا عصرهم بأكثر من أربعة عشر قرناً.

وقد دعت الشريعة الإسلامية العالم إلى ترك الخمر وحرمتها على الناس منذ القرن السابع الميلادي، ولكن لم يستجب لهذه الدعوة ويأخذ بتحريم الخمر إلا البلاد الإسلامية، وأما ماعداها من البلاد، فقد بقيت تحت سلطان الخمر حتى أثبت العلم المادي أخيراً أن الخمر مفسدة عظمى، وأنها تهدم الصحة وتضيع المال وتضعف النسل. هناك بدأت الدعوة لتحريم الخمر تظهر وتشتد، وتؤلف لها الجماعات، وتجمع لها الأموال، وقد نجحت الدعوة لتحريم الخمر نجاحاً ملحوظاً، فلا يكاد يوجد اليوم بلد ليس فيه جماعات قوية تدعوا إلى تحريم الخمر، وتجد كل تعضيد من المنكرين والمصلحين، ويستطيع الإنسان أن يرى أثراً للدعوة إلى تحريم الخمر ظاهراً في التشريعات التي صدرت في القرن الحالي)[٦٢].

---

(٦٢) عبد القادر عودة / التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعي /مكتبة دار التراث – القاهرة / المجلد الأول – ص٥٠ – ٥١.

أقول: رغم أن أثر الدعوة إلى تحريم الخمر ظاهر في التشريعات التي تصدر – بين الحين والحين – في كثير من دول العالم، إلا أن الطريق الأمثل لم تهتد إليه لمكافحة هذا الوباء القاتل، وإنك لتصاب بالذهول وأنت تقرأ الإحصاءات عن ظاهرة الإدمان وتعاطي المخدرات، لا أقول: في العالم الغربي فحسب، إنما يتعدى الأمر إلى العالم العربي والإسلامي، فهي في ازدياد مضطرد، وتنام كبير رغم الجهود الحثيثة من كل الأجهزة التي لها صلة بهذه القضية المدعومة مادياً ومعنوياً، ومما هو معلوم أن الولايات المتحدة الأمريكية أنفقت بعد الحرب العالمية الثانية مليارات الدولارات من أجل محاربة إدمان الخمر، ولكنها عجزت عن ذلك. ترى ما الأسباب في هذا الفشل الذريع لتخليص المجتمع من هذا الداء العضال؟

تحدثت آنفا عن الجهود الحثيثة التي تبذلها الدول من أجل التخلص من هذه الآفة، وهذا شيء جيد إلا أن الذي يلاحظ ـ وهذا ملفت للنظر ـ أن هذه الدعوات لمكافحة الإدمان ونحوه، خلت من الجانب الديني، وتغيب رأي الإسلام والشرع عن هذه القضية، وكان من الواجب التركيز على هذا الجانب، وكنت قد تحدثت عن الضوابط التي ينبغي أن تعتمد إذا ما أراد المفكر أن يكون له الدور الفاعل في تغيير أمر ما يعد خطراً في المجتمع كظاهرة الخمر التي نحن بصدد الحديث عنها، ومن ضوابط هذا المنهج:

فهم القرآن الكريم واستيعاب حقائقه؛ لأنه هو الذي تقاس به القيم، وتحاكم إليه العادات قال الله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء الآية ٦٥ (أي ينقادوا لحكمك انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم)[٦٣].

فالخطوة العملية في جهود العلماء السابقين الداعين إلى مكافحة هذا الشر

---

(٦٣) تفسير أبي السعود ج٢/١٥٨.

المستطير ينبغي أن يعرض أولا على القرآن الكريم. ومما أشرت إليه من تلك الضوابط: بناء الإنسان الذي يحمل الأمانة، ويتصدى لشروط الاستخلاف في الأرض عقدياً، فإنه ولا شك يؤدي إلى تعميق البعد الروحي والاتصال بالله تعالى، والخوف منه، واستحضار وجوده، وبالتالي يقبل على أحكام الشريعة، ويقوم على طاعتها في السر والعلن من منطلق إيمانه بأن الخوف من الله تعالى ومراقبته نوع من العبودية، يتقرب بها إليه. وغير ذلك من الضوابط التي سبق أن جعلتها في مبحث مستقل.

فالقائمون على محاربة ظاهرة الخمر وغيرها من العادات القبيحة لم يلتزموا بالمنهج السديد الذي يقوم على أطر مهمة حتى يتسنى لهم تحقيق التغيير، على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام ومن سار على دربه، فقد التزموا بها واعتمدوها بالكلية فاستطاعوا - بعون الله تعالى وتوفيقه - أن يطهروا المجتمع الإسلامي من هذه العادات السيئة.

والذي أخلص إليه من هذا المطلب:

أن الأحكام الشرعية لم تنزل دفعة واحدة، وذلك لرعاية حال المخاطبين، وعدم مفاجأتهم بتشريعات وعادات وأخلاق لا عهد لهم بمثلها، فنزول القرآن الكريم على هذا الوضع (أدعى إلى قبوله إذا نزل على التدرج، بخلاف ما لو نزل جملة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس؛ لكثرة ما فيه من الفرائض والنواهي)[٦٤]. وكما يقول الشاطبي: معقباً على القول بأن الأحكام الشرعية نزلت منجمة، لأنها: (أقرب إلى التأنيس حين كانت تنزل حكما حكماً، وجزئية جزئية، لأنها إذا نزلت كذلك لم ينزل حكم إلا والذي قبله صار عادة، واستأنست به نفس المكلف الصائم عن التكليف، وعن العلم به رأساً، فإذا نزل الثاني كانت النفس أقرب للانقياد له، ثم كذلك في الثالث والرابع)[٦٥]. ووضح ذلك ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة

---

(٦٤) الإتقان في علوم القرآن ج١/ ١٣٦.
(٦٥) الموافقات للشاطبي ج٢ /ص٩٤ مرجع سابق.

من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً)(٦٦).

والذي يفهم من كلام الصحابية الجليلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كما ورد في الحديث الشريف أن التدرج في التحريم يجمع بين الخمر والزنا، والحقيقة أن هذه قضية تحتاج إلى بيان، فلا ينبغي أن نمر عليها دون بيان لها، فعائشة رضي الله تعالى عنها لم تقصد أن تحريم الزنا لم يتم إلا على مراحل، شأنه كظاهرة الخمر التي قد حرمت دفعة واحدة، لعلمها أنها نزلت دفعة واحدة، وإنما أرادت بيان أوائل ما نزل من القرآن الكريم التي تتناول أصول الإيمان بالله واليوم الآخر. وكون الزنا لم يحرم ابتداء لا يعني التأخير كثيراً، إذ وقع تحريمه في مكة المكرمة على كل حال، وهذا لا يعني تدرج هذا التحريم، إذ لم نر حالة من حالات الزنا يقر في الإسلام بأية صورة، وإنما الذي عرف أن الإسلام أمضى أمره بتحريم الزنا بأسلوب قاطع، كما حرم سائر الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، وقد وضح هذه المسألة الدكتور صبحي الصالح(٦٧).

ثالثا: سياسة التدرج في إبراز العظات

إظهار العظات هدف مهم من أهداف نزول القرآن الكريم مفرقاً على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ويتجلى ذلك في قصص الأنبياء الواردة في كتاب الله تعالى، فالمستقرئ لها يدرك أنها لم تنزل دفعة واحدة، بل تكررت، فتذكر القصة عدة مرات، بالإيجاز مرة، وبالإطناب أحياناً، كقصة عيسى عليه السلام وقصة إبراهيم، وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(٦٦) البخاري / محمد بن إسماعيل أبو عبد الله ت٢٥٦ / صحيح البخاري – دار ابن كثير، اليمامة – ط٣ /١٤٠٧هـ – ١٩٨٧ – تحقيق مصطفى ذيب البغا. ج٤ / ١٩١٠ رقم الحديث ٤٧٠٧.

(٦٧) انظر/الدكتور صبحي الصالح/ مباحث في علوم القرآن – دار العلم للملايين – بيروت الطبعة السادسة عشرة ١٩٨٥م، ص ٥٧، ٥٨، ٥٩.

فما وجه البلاغة في هذا التكرار؟ ولماذا لم يتم دفعة واحدة؟ إذا نظرنا نظرة تأمل نرى أن التكرار في كتاب الله تعالى له مغزى وهدف، وليس كالروايات القصصية التي تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة، على خلاف ما ورد من قصص في القرآن الكريم، وهو قصص لأمور واقعة يساق للعبر وإعطاء المثلات، لا لمجرد المتعة من الاستماع ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يوسف آية ١١١.

ولكي يتبين للقارئ الكريم أن التكرار للقصص المقصد الأول منه تعدد العبر، نذكر أنموذجاً من نماذج عدة، (قصة إبراهيم) عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فإنها ذكرت كثيراً في كتاب الله تعالى. فقد كان أبا العرب فقصصه له مقامه عندهم.

أ - أول ما نذكر من هذه القصة: هو ما يربطه بالعرب، وما كان شرف العرب به بناء الكعبة، فقد ذكر هذا البناء الذي قام به، وعاونه فيه ابنه إسماعيل وبإبراهيم وإسماعيل تشرف العرب بأنهم من سلالتهما، وبالبيت الحرام اعتزوا، إذ كان مثابة للناس وأمنا[٦٨]. ثم بين الله تعالى من بعد ذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام.

ب - نجد بعد هذه القصة قصة النفس البشرية في نبي الفطرة إبراهيم عليه السلام، إذ النفوس - ولو كانت مؤمنة - لتزداد إيماناً، وإن كان أصل الإيمان قائماً، فزيادة البيان تزيد المؤمن إيماناً، وتزيد الجاحد كفراً وإلحاداً[٦٩]. واقرأ قصة طلبه زيادة الإيمان، ومن قبل ذلك في الذكر كانت قصته مع الملك عندما ناقشه في إثبات وجود الله تعالى، وقدرته عليه السلام في إفحامه إذ هو لا يؤمن إلا بالمحسوس[٧٠].

---

(٦٨) انظر الآيات التي تشير إلى هذا البناء الذي قام بأمر رباني (البقرة ١٢٤-١٢٨).
(٦٩) اقرا الآية الدالة على ذلك في سورة البقرة آية ٢٦٠.
(٧٠) اقرأ الآية الدالة على ذلك في سورة البقرة آية٢٥٨.

ج - ولننتقل إلى قصة أخرى موضوعها يتعلق -أيضاً- بإبراهيم عليه السلام، وهو تدرج النفس الإنسانية في الاتجاه إلى طلب الحقيقة الإلهية والإيمان بالوحدانية، كيف ابتدأ إبراهيم تأمله في الكون؛ ليتعرف من خلاله على عظمة الخالق، فأول ما استرعاه نجم ساطع، فحسبه ربه، ولكن الرب موجود دائماً، فلما غاب نفر مما زعم. ثم لما رأى القمر... وهكذا حتى هدي إلى أن سر الوجود، يجب أن يكون غير هذا كله، فاتجه إلى الله تعالى.. وانظر القصة كما ذكرها الله تعالى وكما وقعت[٧١].

وهكذا نرى القصة مغايرة تمام المغايرة لما سبق، وإن كانت غير معارضة لها، بل هي متممة.

د - انتقل إبراهيم عليه السلام من الاهتداء إلى الله إلى عمل إيجابي نحو الأصنام، ليحطمها، فبعد أن نال رشده تقدم ليثبت ضلالها، وأنها لا تضر ولا تنفع، فحطمها[٧٢]. وقد ذكرت هذه القصة في غير المواضع السابقة، فالنسق القرآني المعجز اقتضى أن يكون كل جزء مكوناً لقصة ذات عبرة مستقلة في ذاتها.

هـ - وجزء آخر من قصة إبراهيم عليه السلام: صلته بأبيه، وكيف كان حريصاً عليه. وانظر الآيات التي تحكي عن إبراهيم ذلك بعد أن صار صديقاً نبياً[٧٣]. تجد رفق الدعوة التي تفيض بحنان البنوة في عباراتها، ولا يمكن أن يوجد في أي لغة وفي أي كلام عبارات برفق الرعاية والعطف بمثل هذه العبارات؛ لأنها كلام العليم الحكيم.

هذه قصة إبراهيم عليه السلام ذكرناها بإيجاز شديد لكيلا يتوهم القارئ للقرآن الكريم أن فيه معاني مكررة، وألفاظاً مرددة. فحكمته تعالى اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء في مواضع؛ لتكون كل عبرة بجوار خبرها في القصة،

---

(٧١) الأنعام ٧٤-٨٠.

(٧٢) انظر الآيات التي تدل على ذلك من (٥١ - ٧٠) في سورة النساء.

(٧٣) مريم ٤١ - ٤٧.

ولو نزلت دفعة واحدة واجتمعت في مكان واحد اختلطت العبرة بالقصة الخبرية، وما تميزت كل عبرة تميزاً يجعلها كوناً مستقلاً مقصوداً بالذات، وبقية الأجزاء التي لم نرطب قلمنا بذكرها لا تكرار فيها بل كل واحدة لها عبرتها[٧٤].

رابعا: سياسة التدرج في التجاوب مع الأحداث والنوازل

تجاوب الوحي مع الأحداث: مقصد مهم من مقاصد نزول القران مفرقاً على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فكلما جد جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وفصل من الأحكام ما يوافقه، ويعرف هذا بأسباب النزول، ويندرج تحت هذا المطلب أهداف كثيرة، منها:

أولا: التجاوب في كل ما نزل توجيهاً للمؤمنين، وتنبيهاً وإرشاداً لهم في حادثة وقعت، أو تشريعا في قضية عرضت، من ذلك:

أ - ما وقع في صلح الحديبية من اعتراض بعض الصحابة على بعض بنودها: (أنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه).
في الصحيحين: أن عمر بن الخطاب قال: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: أو لست نبي الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألست على حق؟ وعدونا على باطل؟ قال: بلى. قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قلت: ففيم نعطي الدنية بديننا إذاً؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري». قلت: أو لست كنت تحدثنا أنه سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى. أفأخبرتك انك تأتيه عامك هذا؟» قلت لا. قال: «فإنك آتيه ومطوف به». فلم يصبر عمر حتى أتى أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فسأله مثل ما سال رسول الله، ففال له: يا ابن الخطاب انه رسول الله ولن يعصي ربه، ولن يضيعه الله أبدا، فما هو إلا أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى عمر

---

(٧٤) انظر المعجزة الكبرى للإمام محمد أبو زهرة / دار الفكر العربي / القاهرة – طبعة جديدة / ١٩٩٨ ص١٢١/١٢٢/١٢٣/١٢٤/١٢٥.

فأقرأه إياها. فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال نعم. فطابت نفسه[٧٥].

ترى لم لم تظهر الحكمة الإلهية التي تضمنها هذا الصلح ابتداء، وإنما ظهرت للعيان، وتجلت فيما بعد، حتى أضحت آية من آيات الله تعالى الباهرة؟

إنما كان كذلك ليظهر الفرق بين وحي النبوة والإلهام الإلهي وتدبير الفكر البشري، ولقد رأينا كيف استبد الضيق والقلق بعمر، ودهشة المسلمين لهذا الموقف من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن سرعان ما انتهت هذه الضائقة حينما تلا رسول الله سورة الفتح التي تنزلت عليه عقب الفراغ من أمر الصلح. فهل في أدلة العقيدة دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ من هذا الدليل؟

ومن الحكم الجليلة التي خفيت على الصحابة رضوان الله عليهم من هذا الصلح: أنه كان مقدمة بين يدي فتح مكة، فقد كانت هذه الهدنة – كما قرر العلماء – باباً له، ومفتاحاً، ولئن لم يكن الصحابة قد تنبهوا لهذا في حينه، فذلك لان المستقبل غائب عنهم، ولكن ما إن مضت فترة من الزمن حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنةودلت الحوادث الأخيرة على أن صلح الحديبية الذي تنازل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم لقبول كل ما ألحت عليه قريش ورأوا فيه انتصارا لهم، وتحمله المسلمون لقوة إيمانهم، كان فتح باب جديد لانتصار الإسلام وانتشاره بسرعة لم تسبق، وكان بابا إلى فتح مكة[٧٦].

تلكم بعض الحكم الجليلة المتعلقة بأمر صلح الحديبية[٧٧]، ما كان لها أن تبرز في بادي الأمر، وظهرت فيما بعد، وهذا من الآثار المباركة الطيبة من نزول القرآن الكريم على حسب الحوادث والوقائع، ولم ينزل دفعة واحدة.

ب – ما وقع من أخطاء وأغلاط وتنبيه المؤمنين من الوقوع فيها ومعاودتها، والنماذج على ذلك كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال، وليس على سبيل

---

(٧٥) صحيح البخاري /ج٣/ص١١٦٢- رقم الحديث ٣٠١١.

(٧٦) انظر السيرة النبوية، للعلامة أبي الحسن الندوي / دار القلم – دمشق – طبعة دار القلم الأولى / ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م

(٧٧) انظر فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد البوطي ص٢٣٤.

الحصر: ما حدث في غزوة أُحُدٍ، وما وقع في حنين، فقد خالف الرماة في الأولى: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مجتهدين، وكانت النتيجة هزيمة المسلمين، وشج وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكسرت رباعيته، واستشهد عدد كبير من الصحابة، فأنزل الله تعالى آيات عدة تحذرهم من المخالفة، ومبينة أخطاءهم، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٢] وما بعدها.

أما في حنين، فقد اغتر المسلمون بكثرتهم حتى قال البعض (لن نهزم من قلة) فكانت الهزيمة، ولولا تدارك المولى جل جلاله لهم برحمته وفضله وثبات النبي صلى الله عليه وسلم وإنزال الملائكة مقوية لقلوبهم لكانت الكارثة، تأمل قوله تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ سورة التوبة آية ٢٥ -٢٧.

وقد كانت حنين درساً قاسياً استفاد منه المسلمون، وأدركوا أن النصر بيد الله تعالى، وأن الاغترار ليس من صفات المؤمن وأخلاقه، وغير ذلك من الأمثلة(٧٨).

نكتفي بما تقدم بيانه مخافة الإطالة، ومعلوم أن هذه الأخطاء والأغلاط لم تكن تقع في وقت واحد، فكانت حكمة الله تعالى نزول القرآن منجماً.

ج – الكشف عن خبيئة نفوس المنافقين، وتحذير المؤمنين منهم:

من فضل الله تعالى على عباده الطيبين الطاهرين، أن كشف لهم أستار المنافقين، وشنع عليهم في كثير من الآيات، فقد كان لهم بالمرصاد،

---

(٧٨) انظر سيرة ابن هشام ج٤ ص٦٦ – ٦٧.

فكلما بيتوا أمراً أطلع الله عليه رسوله، أو كادوا مكيدة ردها الله تعالى في نحورهم، أو أضمروا قولا أظهره الله تعالى. وطبعي أن هذه المخططات المدبرة والمسائل المبيتة، والأفعال والأقوال السيئة التي كانت تنبثق عنهم لم تكن طفرة واحدة، بل كانت في أزمنة متفرقة فمن ثم جاء القرآن مفرقاً. وان شئت نماذج حية لما كان يفعله المنافقون وإظهار الله تعالى لحالهم، فسأذكر لك نموذجين تطبيقيين، منها على سبيل: تقرير قاعدة مراعاة التدرج في عملية الإنجاز، وبيان أثرها العملي في تحقيق عملية التحكم في الواقع كهدف أساسي للفعل الدعوي:

١ - روى ابن هشام في سيرته أن غلاما لعمر بن الخطاب رضي الله عنه تنازع مع سنان بن وبر الجهني، وهما مع جمع عند ماء المريسيع أثناء مقام النبي صلى الله عليه سلم هناك، وكادا أن يقتتلا. فسمع بالأمر عبد الله بن أبي بن سلول، فغضب وقال للرهط ممن معه: أو فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في دارنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش[٧٩] إلا كما قالوا: سمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، وكان عنده عمر رضي الله تعالى عنه، وأشار عليه بقتله. فقال له رسول الله: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه**[٨٠]**؟ لا، ولكن آذن بالرحيل**»، فارتحل الناس؛ وذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، حديث زعيم المنافقين ابن أبي، ونزلت سورة (المنافقون)؛ تصديقاً للخبر عن المنافق. وفيها يقول: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ

(٧٩) والله ما أعدنا أي ظننا يعني معاشر الأنصار وقريش وفي رواية وجلابيب قريش هؤلاء يعني معاشر المهاجرين إلا كما قال الأول أي الأقدمون في أمثالهم سمن كلبك يأكلك أي ويقولون أجع كلبك يتبعك.انظر السيرة الحلبية / دار المعرفة / بيروت / ١٤٠٠هـ / ج٢ / ٥٩٦

(٨٠) انظر صحيح البخاري / دار ابن كثير / بيروت / الطبعة الثالثة / ١٤٠٧هـ، ١٩٩٧م /ج ١٢٩٦/٣، رقم الحديث ٣٣٣٠ وانظر صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي /بيروت/ ٤/ ١٩٩٨، رقم الحديث ٢٥٨٤.

ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [المنافقون: الآية ٨][٨١].

ترى ألم يكن ما سمعه رسول الله مبرراً لقتل هذا المنافق، وقد كفر بعد الإيمان وسعى في إفساد المسلمين، إلا أنه صلى الله عليه وسلم استقبل الأمر بحكمة فائقة، فتعامل معه بأريحية تامة، بعيدة عن العاطفة المتأثرة، والانفعال العابر، ولذلك لم يستجب لبعض الصحابة فيما أرادوا، وحرص على تطويق هذه الحالة من بعيد، وعزل قادة النفاق تدريجياً، بصبر وأناة وحنكة بالغة، حتى تهيأت ظروف التحكم في الظاهرة بشكل فعال. فقد أمر رسول الله القوم بالمسير في وقت لم يعتادوه؛ حتى يشغلهم السير عن الاجتماع على المحادثة والكلام، وهذا يدل على البراعة الفائقة في سياسة الأمور، ولقد كان من نتيجة هذه الحكمة أن انحسر عن هذا المنافق أقرب الناس إليه: ولده عبد الله، الذي عرض على رسول الله قتله، وقال له رسول الله ما قال. وكما ابتعد عنه ابنه، انحسر كذلك عنه قومه فكانوا هم الذين يعنفونه، ويفضحون أمره إذا ما أراد أن يحدث شيئاً.

من هنا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمر: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله، لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته». فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري[٨٢].

وهذه النتائج الإيجابية الرائعة لم يكن تحقيقها ممكناً بدون اتباع هذه المرحلية والتدرج في معالجة الظاهرة النفاقية كما يراها رسول الله بما أوحي إليه.

---

(٨١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤/٢٥٣- ٢٥٤، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ج٤ ص١٥٧ وفتح الباري ج٨ص٦٥٠.

(٨٢) فقه السيرة النبوية / للبوطي ص ٢٢١- ٢٢٢.

ومن النماذج التطبيقية التي انفرد بها المنافقون: (قصة الإفك)[٨٣]. التي تتلخص في اتهام عائشة رضي الله تعالى عنها بالزنا من صحابي جليل. والحقيقة، أن هذه الأذية أشد ما تعرض إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من صنوف الإيذاء والتعذيب، ويشتد الابتلاء بأن الوحي لم يسارع إلى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين، ولو حصل ذلك لكان مخلصاً من هذا القلق والريب، ولكن الوحي تلبث أكثر من شهر لا يعلق على ذلك، ترى ما الهدف من عدم التسارع إلى معرفة الحقيقة في أمر جلل كهذا؟. لقد كانت محنة الإفك هذه منطوية على حكمة إلهية استهدفت في الدرجة الأولى إبراز شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وإظهارها صافية نقية مميزة عن كل ما يلتبس بها. لقد فاجأت هذه الشائعة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلها كأي بشر عادي من الناس ليس له اطلاع على غيب مكنون، ولا على قصد ملفق كاذب، فاضطرب كما يضطرب الناس، وشك كما يشكون، ويستنجد في ذلك بمشورة أهل الرأي من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية في إبراز هذا الجانب الإنساني المجرد فيه صلى الله عليه وسلم أن يتأخر الوحي؛ كي تتجلى حقيقتان كل منهما في غاية الأهمية:

الحقيقة الأولى: هي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشراً من الناس.

الحقيقة الثانية: هي أن الوحي الإلهي ليس شعوراً نفسياً، كما أنه ليس خاضعاً لإرادته وأمنياته، إذ لو كان كذلك لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة[٨٤]. وهكذا فقد انطوت قصة الإفك على حكم إلهية باهرة، وتلك الخيرية التي عبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ

(٨٣) للاطلاع على حيثيات هذا الخبر ارجع إلى صحيح البخاري، باب (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهن خيرا) -ج٤ص١٧٧٤ رقم الحديث ٤٤٧٣.

(٨٤) فقه السيرة النبوية ص٢٢٢/ ٢٢٣ (بتصرف).

لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: الآية ١١] ما كانت لتتحقق تلك المقاصد لو أن القران الكريم نزل دفعة واحدة، وإنما المنهج السديد لكشف الحقيقة إنما هو التأني وعدم التعجل.

وبعد: فهذه بعض الآثار المترتبة على نزول القرآن منجماً، وهذه في الواقع ليست نهاية الحكم والأهداف والمقاصد، فهناك لمن أحكم النظر وأجال البصر حكم وحكم.

وأخيراً، أسال الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وأساله التوفيق فيما بحثت ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ يوسف٥٣. وحسبي أني قصدت الحق ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود: الآية ٨٨].

والحمد له رب العالمين، وصلى الله تعالى على نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

الخـــاتمـــة

ظهر لي من خلال دراستي الموجزة لهذا البحث بعض النتائج يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- إن ما يراد تغييره بكفاءة عالية، لا بد أن يكون عبر منهج علمي منضبط، يحكم خطوات الإنسان في جميع مراحل الدورة الانجازية للفعل المراد تغييره، فهو الأسلوب الوحيد أمام الإنسان؛ لأنه يعينه على الاستعمال الأمثل لطاقاته ووقته.
- فهم القرآن الكريم وتطبيقه في الواقع، لأن المفهوم الحقيقي لا يتم إلا إذا تجلت هذه المعرفة الحقيقية العملية في سلوك الإنسان الواعي، عندها تظهر أهمية التدبر لكتاب الله تعالى.
- إن من يتولى عملية التغيير لا بد له من التعرف على واقع الإنسان، ووضعه الاجتماعي، وتكوين صورة عنه مجملة عنه؛ لتحديد المراد تغييره؛ حتى يتمكن من وضع المنهج المناسب لإنجاح عمله بدقة وإتقان.
- الحرص على بناء الإنسان وتربيته على العقائد الصحيحة، والفضائل الشريفة وفق ما جاء في القرآن الكريم وهدي النبي صلى الله عليه وسلم. وليس من شك أن مثل هذا البناء يعدُّ أساساً في إنجاح المرحلة الأساسية في عملية التغيير.
- التأني وعدم العجلة واختيار الوقت المناسب عوامل مهمة في قضية التغيير لا بد من سلوكها، وكذلك عدم اللجوء إلى الفعل القسري إذ لايمكن أن يحقق الغرض المنشود، بل العكس بأن يحدث ردود فعل مضادة.
- أهمية نزول القرآن الكريم منجماً على حسب الوقائع والحوادث والمناسبات. فقد لوحظ في التدرج حكم بارزة، ومقاصد جليلة، وثمرات عظيمة تعود على رسول الله خاصة: حيث إثبات رسالته، وإقامة الدليل على إعجاز القرآن الكريم على أبلغ وجه وآكده، كما أن إتمام عملية التنزيل مفصلاً تعود بالنفع على الناس جميعاً ويتجلى ذلك في كثير من القضايا المهمة، منها: تبديل العقائد الفاسدة والعادات السيئة، وإرساء المبادئ، وتثبيت القيم، وإلقاء الإرشادات والتوجيهات، ونظم الحياة كلها.

هذا وبالله التوفيق

فهرس المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم

٢ - الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ - الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م -دار ابن كثير، تقديم وتعليق الدكتور مصطفى ديب البغا.

٣ - البرهان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - سوريا، الطبعة الأولى - ١٣٧٦هـ

٤ - تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، دار إحياء الكتب العربية - عيسى ألبابي الحلبي - القاهرة.

٥ - تفسير البحر المحيط / للإمام محمد بن يوسف الغرناطي - ت٧٥٤ ط: دار الفكر / بيروت، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٨م

٦ - تفسير البغوي المسمى معا لم التنزيل - طبعة مصطفى محمد - المكتبة التجارية الكبرى - مصر

٧ - تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم / للإمام أبي السعود محمد ألعمادي ت٩٥١هـ دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م

٨ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لأبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي / دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م

٩ - تفسير التحرير والتنوير /للعلامة محمد الطاهر بن عاشور ١٢٨٤هـ / طبعة الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٤هـ

١٠- تفسير الطبري المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القران) للإمام محمد بن جرير الطبري ت٣١٠هـ ط:دار المعرفة / بيروت / ١٤٠٧هـ

١٩٨٧م وانظر طبعة دار الكتب العلمية / بيروت / الطبعة الثالثة / ١٩٨٨م. وانظر طبعة دار الفكر- بيروت - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١١- تفسير القرطبي المسمى /الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ت٦٧١هـ الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١٢- التفسير القيم للإمام ابن القيم تحقيق فواز أحمد زمرلي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١٣- التفسير الكبير للعلامة محمد بن عمر الرازي - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠ الطبعة الأولى.

١٤- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان / للشيخ إسماعيل حقي البر وسوي ت ١١٣٧هـ تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني طبعة دار القلم - دمشق - الطبة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٤ه هـ

١٦- دقائق التفسير / لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق محمد السيد الجنيد - مؤسسة علوم القرآن - بيروت - الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ

١٧- تفسير البغوي المسمى / معالم التنزيل للإمام ابن مسعود الفراء البغوي ت٥١٦هـ تحقيق خالد العك ومروان سوار - الطبة الثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م دار المعرفة - بيروت.

١٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للعلامة / الزمخشري ت٥٣٨هـ - دار المعرفة للنشر والطباعة - بيروت.وانظر نسخة تحقيق محمد مرسي عامر / الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م - مكتبة عبد الرحمن محمد - القاهرة.

١٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / للعلامة ابن عطية الأندلسي

ت ٤٦٠هـ تحقيق عبد الله الأنصاري وزميله / طبعة دار الفكر العربي – القاهرة.

٢٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي – الطبعة الأولى – دار الفكر – بيروت ١٩٨٣م.

٢١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ للعلامة شهاب الدين السيد محمود شكري الالوسي ت ١٢٧٠هـ طبعة دار الفكر – بيروت.

٢٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للعلامة/ الشوكاني اليماني ت١٢٥٠ / طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت.وانظر طبعة دار المعرفة– بيروت.

٢٣- مدارك التنزيل وحقائق التأويل / لعبد الله بن أحمد النسفي / المكتبة الأموية – بيروت.

٢٤- مذكرة في تفسير سورة هود للعلامة عبد الحميد الشاذلي – كلية أصول الدين في جامعة الأزهر.

٢٥- مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني الطبعة الثانية– دار إحياء الكتب –عيسى الحلبي وشركاه ١٣٧٢هـ

٢٦- مباحث في علوم القرآن / للدكتور صبحي الصالح – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة السادسة عشرة ١٩٨٥م.

٢٧- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني – تحقيق / محمد سيد كيلاني – دار المعرفة – بيروت – الطبعة الأولى.

٢٨- معجم مقاييس اللغة لابن فارس / تحقيق عبد السلام محمد هارون – طبع دار الفكر – بيروت

٢٩- تاج العروس من جواهر القاموس / للسيد محمد مرتضى الزبيدي، دار ليبيا للنشر والتوزيع –بنغازي – الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ. وانظر طبعة دار الهداية.

٣٠- تهذيب اللغة / لمحمد بن احمد الأزهري تحقيق علي حسن هلالي / الدار المصرية وهناك نسخة محققة من الأستاذ /إبراهيم الابياري، دار الكتاب العربي - الطبعة الأولى - ١٩٦٧م.

٣١- القاموس المحيط / لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيرروزآبادي ت ٨١٧هـ طبعة الحلبي وشركاه - القاهرة. وانظر النسخة المحققة من الأستاذ / يوسف محمد البقاعي / دار الفكر - بيروت - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣٢- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، وكذلك دار بيروت - بيروت - ١٣٧٥م وانظر طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٣- مختار الصحاح للإمام / محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي - دار الفكر العربي - بيروت

٣٤- شرح النووي على صحيح مسلم: للإمام يحي بن شرف النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها

٣٥- شعب الإيمان للبيهقي - تأليف أبي بكر احمد بن الحسين البيهقي، تحقيق / أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ

٣٦- البخاري المسمى (الجامع الصحيح) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ت٢٥٦هـ طبعة مصطفى ألبابي الحلبي بمصر - ١٣٧٨هـ ١٩٥٩م

٣٧- صحيح مسلم بن الحجاج ت٢٦١هـ طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون ذكر سنة النشر.

٣٨- الطبقات الكبرى لابن سعد محمد سعد بن كنيع أبو عبد الله ت٢٣٠هـ طبعة بيروت - ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

٣٩- الإصابة في تمييز الصحابة / للإمام شهاب الدين أو الفضل أحمد بن

حجر العسقلاني / طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت - مصورة عن الطبعة الأولى في مطبعة السعادة في مصر - ١٣٢٨هـ

٤٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري / للمؤلف السابق - طبعة مصطفى البابي الحلبي - ١٣٧٨هـ ١٩٥٩م.

٤١- الموافقات في أصول الشريعة / للعلامة الشاطبي /إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي ت٧٩٠هـ ضبط وتفصيل الأستاذ محمد عبد الله دراز بدون تاريخ.

٤٢- السيرة النبوية لابن هشام ت٢١٣هـ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي الطبعة الثانية / مصطفى البابي الحلبي - مصر - ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م وانظر طبعة / وانظر - دار الجيل - بيروت / ١٤١١هـ.

٤٣- فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد البوطي.

٤٤- المعجزة الكبرى للإمام محمد أبو زهرة / دار الفكر العربي / القاهرة - طبعة جديدة / ١٩٩٨م

٤٥- السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة.

٤٦- سيرة عمر بن عبد العزيز للأستاذ ابن عبد الحكيم.

٤٧- التغيير الإسلامي للأستاذ الطيب برغوث.

٤٨- منهج النبي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها / للأستاذ الطيب برغوث.

٤٩- التشريع الإسلامي في الإسلام مقارنا بالقانون الوضعي / للأستاذ عبد القادر عودة / مكتبة دار التراث / القاهرة.

٥٠- الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية / للأستاذ الطيب برغوث - الطبعة الأولى / الجزائر - مكتبة رحاب.

٥١- التفسير والمفسرون لأستاذنا محمد حسين الذهبي - مكتبة وهبة - الطبعة الثالثة - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٥ م.

٥٢- خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم - للأستاذ فتحي الدر يني - الطبعة الأولى - بيروت مؤسسة الرسالة - ١٩٨٢م.

٥٣- وجهة العالم الإسلامي للمفكر بن نبي.

٥٤- المكتوبات / النورسي / بديع الزمان - ترجمة إحسان قاسم / الطبعة الأولى / استنبول - دار سوزر للنشر ١٩٩٢م.

٥٥- بدائع السلك في طبائع الملك لمؤلفه محمد بن علي / تونس - الدار العربية للكتاب - ١٩٧٧م

٥٦- ميلاد مجتمع للمفكر مالك بن نبي.

٥٧- التفسير السياسي للأستاذ محمد رواس قلعجي

وبالله التوفيق